

قضايا إسلامية

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

سلسلة يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الاستشراف

في ميزان
الفكر الإسلامي

٣

تأليف الدكتور
محمد إبراهيم الفيومي

القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد التميمي

الاستاذية

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

قضايا إسلامية

مجلد

يصدرها : المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي

٣

تأليف

أ.د. / محمد إبراهيم الفيومي

يشرف على إصدارها

الدكتور محمد إبراهيم الفيومي

القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد
هدانا سبيلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا
وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾

« قرآن كريم »

مقدمة

إنه من الصعب بل من المستحيل أن يتم التعرف الصحيح على حقيقة الإسلام ما دامت جميع وسائل الإعلام الغربية والأكاديمية تنشر المفاهيم الخاطئة والانطباعات السيئة عن الإسلام والعرب . التي سأقدم طرفاً منها بين يدي القراء على صفحات هذا الكتاب وسأحاول تصحيح تلك المفاهيم وفق مصادرها العلمية .. وإيجاد قبول مشترك للمفاهيم التي يستعملها كل طرف من الأطراف . لأننا إذا انطلقنا من مفاهيم لها قدرها العلمي المشترك واعتمدنا على انطلاقات غير معتدلة فإن الحوار يصبح بكل تأكيد مغلوطاً .

ومعلوم أن التفاهم الحقيقي والحوار المتكامل بين طرفين يتطلب إيجاد مساحة مشتركة من المفاهيم الفكرية المتفق عليها بين المتحاورين في مجالات الإسلام الواسعة : المذهبية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية .

لذلك يجب التركيز على تلك المبادئ إذا أراد الغرب أن يقيم حواراً مع الإسلام وفق الركائز الأساسية التالية :

أولاً : النظر من جديد إلى حقيقة الإسلام من منابعه الأصلية .
ثانياً : اخذ من النظرة العرقية المشوهة للإسلام والعرب ، أما قد حان الوقت لكي تنتهي عنصرية الأقوياء ولكي يأخذ الحوار مكانه .
ثالثاً : أن تتوقف مكونات الرأي العام الغربى عن نشر الصور المشوهة والمرضية عن الإسلام والمسلمين والعرب^(١) .

وفي النهاية نقول إن خير وسيلة للحوار هي التفاهم . إن التفاهم المتبادل هو دائماً الأداة الثقافية الضرورية لتقدير الشعوب حق قدرها .

« المؤلف »

(١) راجع الاستشراق . رسالة استعمار . أ.د./محمد إبراهيم الفيومي . دار الفكر العربى .

الفصل الأول

نظرات في تاريخ الاستشراق

قال اللورد كرومر يصف متعربة المصريين :
« إنهم مسلمون وليس فيهم خواص المسلمين » .
« وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية »^(١) .

(١) حاضِر العالم الإسلامي .
مؤرِب سِوَارِد . الأمريكي .
نقله إلى العربية الأستاذ عِجَاج لَوِيض .

نظرات في تاريخ الاستشراق

ظاهرة الاستشراق :

نحب أن نؤكد بادىء ذي بدء ، ونحن نبحث ظاهرة الاستشراق : أنه لا يجوز أن نبحث ظاهرة الاستشراق على أنها سياسية - استعمارية فحسب ، لم تكن ترى في الشرق إلا ما تنوق إليه ، بل يجب أخذ أية ظاهرة علمية أو ثقافية من مختلف جوانبها ، وتعدد أطرها ، ووجوهها ، بالمنهج العلمى الموضوعى ، مبتعدين عن التعميم خشية الالتباس ، حتى تتميز عناصرها ، وتبين خصائصها من خلال الدراسة والبحث ، لذا يشترط علينا تعدى ضيق الرؤية ، الاستعمارية ، للاستشراق والبعد عن الحكم التسجيلى ووضعهم جميعاً في قفص الاتهام تحت حكم واحد وحيثيات حكم واحد .

والاستشراق من حيث الرؤية العامة النظرية ، يفترض فيه رؤية موضوعية لتاريخ العلاقة التاريخية : القديمة ، والوسيطه ، والحديثة بين الشرق والغرب من أجل التواصل الحضارى ، والروحي ، بين أبناء شعوب حضارات ضاربة في القدم مختلفة جغرافياً أو متباعدة تاريخياً ، ضرورة استمرار الوجود الحضارى ، وإقامة جسر ثقافى للتبادل المعرفى ، وهو مبدأ عرفته البشرية كوسيلة فعالة لإحياء حوار الحضارات ، وفى ذلك كله ما يعين على الخروج من الأزمات الحضارية التى كثيراً ما تتعقد وتتشابك علاقاتها ، وفى ذلك خير للشرق والغرب والتواصل الحضارى بين الشعوب .

لكن واقع الاستشراق من حيث منظوره التاريخي هو كما وصفه إدوارد سعيد^(١) : أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه .. وبأن الاستشراق قد شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار الشرقية ، كالأبته الشرقية ، القسوة الشرقية ، والحواسية الشرقية .

ولم يكن إدوارد سعيد مبالفاً حين كشف الاستشراق وفضح نواياه وأعماله التي تعاملت مع الشرق . لكن ليس من المنطق ، وليس من التاريخ أن تصدر حكماً عاماً على « أكاديمية الاستشراق » ففيها ذور التوجه الاستعماري ، وذور التوجه التبشيري ، وفيهم ذور التوجه الموضوعي ، وذلك مما يقف مانعاً أمام إصدار حكم عام يدين الاستشراق ، وإن كان هناك من الأمثلة العديدة السيئة التي تعين الباحث على إصداره ، وقليل هي تلك الشواهد التي تشهد للاستشراق العلمي بحسن النية والموضوعية . فليس من السهل الحكم على الاستشراق - وهي خطوة لا بد منها ، ولا يتيسر ذلك إلا بعد تحرير المعرفة الشرقية ، من قوالب الاستشراق الاستعماري ، وذلك يتم من خلال مقارنة تصنيفية للمسلمات الثقافية والأخلاقية والشرقية والغربية لفرز ما هو شرق حقيقي وأصيل مما هو استشراق موضوعي ، واستشراق استعماري .. أو تبشيري .. إلخ ، وتلك الخطوات تأتي على الطريق .

تاريخ مصطلح مستشرق :

يرى أربري^(٢) : ان أول استعمال لكلمة « مستشرق » رأيناه في سنة ١٦٣٠ حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، وفي سنة ١٦٩١ وجدنا « أنتوني وود » يصف « صموئيل كلارك » بأنه « استشراقي ناب » يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية ، وفي خلال

(١) الاستشراق - إدوارد سعيد - د. كمال أبو ديب - بيروت .

(٢) المستشرقون البريطانيون ص ٧ - ترجمة محمد الدسوقي موهبي .

المجادلة التعليمية بالهند التي حسمها تقرير « ماكولى » الشهير سنة ١٨٣٤
كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين ، بينما سعى
معارضوهم الذين رغبوا في أن تكون الإنجليزية أساس التعليم بالهند
(المستجلزين) ...

ومما يؤسف له كما يقول أربري أن ما أنتجه هذا النزاع المشهور من
الحزابات قد ألصق باسم المستشرق قدراً كبيراً من القدرح والنقد . ولا شك
أن « تشارلز دوى » كان يشير إلى ذلك حيث يقول : « إن الشمس جعلتني
عريباً ولكنها ما شوهتني قط بالاستشراق » .

ولكن أربري يختار تعريف قاموس إكسفورد الجديد فيحدد « المستشرق »
بأنه « من تبحر في لغات الشرق وآدابه وذلك هو التفسير الذى سنعتمد عليه
في حديثنا التالى . وإن كان يفرض علينا أن ندع لآخرين أن يكتبوا عن ذلك
الكم الغفير من الشهرة والصيت الذين عرفوا الشرق معرفة جيدة ، والذين
استلهموا أدباً بديعاً ، ولكنهم خرجوا عن حد التعريف السابق فلا يستطيع
تسميتهم مستشرقين^(١) .

والتعريف كما يذهب أربري : يحمل في طياته التاريخية معنى الصراع الغربى
والمبول الاستعمارية ، مما ألصق به منذ ظهور المصطلح قبل أن يكون علماً
... نزاعاً وطمعاً وشكاً في توجهاته ... وذلك ما تشير إليه عبارة « تشارلز
دوى » التى يقول فيها : إن الشمس جعلتني عريباً .. ولكنها ما شوهتني
بالاستشراق . فهو منذ أن كان وهو مع توجهات الاستعمار ويحمل مثله
الروح الصليبية مما جعل تاريخه جديراً أن يوصف : بأنه تاريخ الصراع
والتضليل الثقافى ضد الإسلام .

(١) نفس المرجع السابق ص ٧ .

علم الاستشراق :

يقول بارت^(١) :

الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة ، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه : كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق .

وكلمة شرق تعني مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرق . والأمر إلى هذا الحد واضح كله . ولكن ما معنى كلمة شرق في هذا المقام بالذات ؟

الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه ، فالشرق بالقياس إلينا ، نحن الألمان ، يعنى : العالم السلافي ، العالم الواقع خلف الستار الحديدي . وهذه المنطقة يختص بها الاستشراق ، فمكانه جغرافياً في الناحية الشرقية بالقياس إلينا . والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط ، بل إلى العصور القديمة ، إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط يقع كما قيل في وسط العالم ، وكانت الجهات الأصلية تتحدد بالنسبة إليه . فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق رغم ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط .

كذلك تعرضت لفظة « الشرق » في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها ، أو إذا شئنا دقة أكثر ، تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها .

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص ١١ ترجمة مصطفى ماهر دار الكتاب العربي ١٩٦٧ .

ويراجع : الاستشراق والحلفية التاريخية للصراع الحضاري ص ١٨ ، محمود حمدي زقزوق .

فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب ، بل ناحية الغرب كذلك ، وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال إفريقيا حتى بلغوا المحيط الأطلسي ، واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال إفريقيا دينا وتعرب السكان تدريجياً ، وهم الأقباط في مصر والبربر غربها ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا الذي يسمى بالمغرب أى بلد غروب الشمس ، وإن كان اسم - الاستشراق - يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها .

يعتمد بارت في تحديده لمفهوم الشرق على الرقعة الجغرافية التي انتشر فيها الإسلام وليس على المفهوم الجغرافي ، فهو قد أخرج من تعريف الجغرافيين دول شرق أوربا ... وأدخل فيه ما يعد من الشمال والجنوب .. إلخ . وعلى ذلك يكون مفهوم الشرق ليس جغرافياً ، إنما جرى على العرف الاستشراقي وهو دول الإسلام ، فهو شرق - الإسلام . فالإسلام دائماً هو الشرق .. وذلك تقسيم يقوم بالدرجة الأولى على مفهوم الثقافة العرق .. وهو أن الإسلام بمائل العقلية السامية لانطوائه على خصائص السامية .

يرى جويدي^(١) : سمو الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو « علم الشرق » بل نستطيع أن نقول ان غرض هذا العلم الأساسي ليس مقصوداً على مجرد درس اللغات أو اللهجات أو تقلبات تاريخ بعض الشعوب . كلا .. بل من الممكن أيضاً أن نقول : إنه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربي والتمدن الشرق ، وليس علم الشرق إلا باباً من أبواب تاريخ الروح الإنساني « وليس صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب الذي يقتصر على معرفة بعض اللهجات المجهولة ، أو يستطيع أن يصف عادات بعض

(١) علم الشرق وتاريخ العمران - الزهراء ١٤١١ هـ

الشعوب ، بل إنما هو جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية ، هو من تعاطى درس الحضارات القديمة . ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلاً أو في النهضة الحديثة .

وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية أن يسمى كما سمناه درس تاريخ الروح الإنساني من وجهة نظر الشرق ، لأن إظهار قوى الروح واستعدادها باختلاف الزمان والمكان .
لكن جويدى يرى : أن علم حوار الحضارات - علم الروح الإنساني - علم تطور المناسبات الثقافية : وذلك التعريق يظله المستشرقون الأكاديميون والمنصفون من مؤرخى الحضارات :^(١)

ويبين على غير الحقيقة : أن الشرق من خلال مؤلفات الاستشراق أخذ مكانه في القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب في أفق شمولي .. وليس الأمر كذلك .. إنما بدأت مرحلة صراع الغرب مع الشرق فهو تاريخ عداوة .. واستعمار .

يشير رودنسون في تعريفه : ولادته وزمانها وموطنها .. ثم يظهر من ناحية أخرى نقداً للاستشراق في بداياته من حيث أنه يشمل العديد من المجالات غير المتوازية ، لكنه يرمى بتعبئه الذين جابهوا الاستشراق واعتبرهم هم الذين « ألحقوا به أضراراً وندوباً » .

(١) نفس المرجع ص ١٤

يرى رودنسون^(١) : ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الإنجليزية حوالي ١٧٧٩ .. كما دخلت كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية ١٨٣٨ ، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ، ولم يكن المتخصصون بعد من العدد بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلات متخصصة في بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة واحدة من الشرق ، ومن الناحية الأخرى كثيراً ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عدداً من المجالات بطريقة غير متوازية في عمقها ، ومن هنا بدأ تصنيفهم « كمستشرقين » . وشهدت فكرة الاستشراق تعمقاً كبيراً إلا أنها تعرضت كذلك لأضرار وندوب . وكان الشرق يأخذ مكانه في مؤلفات القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب في أفق شمولي .

أما مالك بن نبي^(٢) فيقول : إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية ، ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى « طبقات على صنفين » :

- من حيث الاتجاه العام : نحو الإسلام والمسلمين في كتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها من المشوهين لسمعتها .
- من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل دوربياك ، والقديس توما الأكويني وطبقة المحدثين مثل كارداوفو وجوزلدزير .

لكن مالك بن نبي يؤكد على عمل بالغ يقوم به الشرقيون وهو : تصنيف المستشرقين إلى طبقات ، وذلك علم برع فيه مؤرخو الإسلاميين دون سواهم من الأمم .

(١) صورة العالم الإسلامي في أوروبا ص ٤٧ - الطليعة ١٩٧٠ م .

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ص ٥ - مالك بن نبي - بيروت .

وأما حسين المراءى فيقول : وعندى أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ...

وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير ، ولا يخفى عليك أن التاريخ الإسلامى ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الإسلام من حيث هو دين وعناصره : القرآن والحديث - وحياة الرسول (ﷺ) .
والقسم الثانى منه : تاريخ الدول العربية التى نشأت وعاشت فى الإسلام ، وهذا القسم قد خدمه المستشرقون حقاً ، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة .

أما القسم الأول منه فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين والذين يتصدون له ترى كلامهم مملوءاً بالتشكيك والاستتاج الخاطيء والغمز واللمز ، أن يكيلوا التهم جزافاً ويرموا الدين الإسلامى بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية^(١) .

ولا شك أن هذا التعريف يصيب الاستشراق فى الصميم لأن عداوتهم للإسلام بالغة السوء .. وأما وصفه بالحرفة فيعنى عدم الموضوعية ويعنى التحيز والانتهاك المسبق كالمحاماة .

يعرض د. شكرى النجار لمفهوم الاستشراق ويحدده بثلاثة مفاهيم ، غير أنه يعرض عن توضيح ما إذا كانت تلك المفاهيم الثلاثة تطلق على مراحل مختلفة للاستشراق أم أنها كانت تلك المفاهيم الثلاثة تطلق على مراحل مختلفة للاستشراق أم أنها تمثل زوايا الاستشراق المتعددة . والذى نراه كما تعرب عنه وجهة نظر الباحث أنها زوايا للاستشراق تعبر عن أبعاده التاريخية والمنهجية إذ

(١) نحن والمستشرقون : مالك بن نبي - المعرفة - يوليو ١٩٣٢ - حسين المراءى .

يرد ظهورها جميعاً إلى القرن التاسع عشر ، وهو العصر الحصيب للاستشراق والاستعمار والتبشير^(١) .

المفهوم الأول - المعنى الأكاديمي :

يطلق على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو من بعيد .

وكانت هذه الكلمة تطلق على دارس الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية أو المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية ، أو حتى المتخصص في سوسيولوجية أو أنثروبولوجية الشعوب الشرقية . ويبدو أن هذا الميل القديم لإطلاق مصطلح « استشراق » . على كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة ، بدأ الآن في الانحسار ، إذ لا نكاد نجد عالم الأنثروبولوجيا مثلاً ، الذي يدرس إحدى الثقافات الشرقية ، يسمى نفسه مستشرقاً على شرار ما كان يحدث في القرن التاسع عشر - فكلمة مستشرق وكلمة استشراق ، أخذتان في الاختفاء في الأوساط العلمية والأكاديمية لتحل محلها كلمات أخرى أكثر دلالة على التخصص العلمي .

على هذا التعريف : تكون كلمة الأكاديمية - والتخصصية ليست من معاني الاستشراق ، والاستشراق بالمعنى العلمي الأكاديمي بدأ في الاختفاء .

(١) لم الاهتمام بالاستشراق - د. شكوى التجار - مجلة معهد الإنماء العربي - عدد ٣١ -
الاستشراق : التاريخ ، المنهج ، الصورة .

المفهوم الثاني - المعنى العرق :

وهو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرق بين الشرق والغرب^(١) .

ولقد أدى هذا المفهوم العرق بعدد كبير من الكتاب والفلاسفة والسياسيين وحتى الاقتصاديين ، ورجال الحكم والإدارة أيام الاستعمار ، إلى أن يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب ، كنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق ، وأفكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية ومصائرها . هذا المفهوم الفضيض لكلمة استشراق سمح لنا بأن ندخل في عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتاب والمفكرين والأدباء وغيرهم ، ممن عالجوا حياة الشرق في مؤلفاتهم ، بصرف النظر عن ماهية هذه المؤلفات ، كفيكتور هيجو ، و « دانتسى » و « ماركوس » ، وغيرهم ، إلا أن هذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة هامة تتعلق في الأغلب بالمنهج العلمي .

فإن الذين يصنفون تحت هذا التصنيف تأفى كتاباتهم وقد خلت من الالتزام بقواعد المنهج العلمي ، تحمل تحاملاً وزيفاً وجهلاً بالاسلام ونبه ، ككتابات « دانتسى » عن الإسلام ونبه .. وماركس حينما جعل الأديان كلها بمنزلة واحدة . فكتابات دانتسى كانت أدخل في باب التخيل وأبعد عن الحقيقة والتاريخ وكتابات ماركس يشوبها التعميم والرأى الشخصى . وهذا المفهوم يؤكد ما صدق المفهوم الأول الذى يرى أن الالتزام بالأكاديمية والمنهجية العلمية لا يجامع مصطلح الاستشراق الذى يقوم منهجه كما يوضح التعريف

(١) نفس المرجع ص ٦٠ .

الثاني على التمايز العرق والعقل والثقافي بين الشرق والغرب . وهذه العرقية كانت من أهم موضوعات الاستشراق ومدخلا سهلا للاستعمار واستغلال الشعوب . وباسم التميز العرق ، أعلن الغرب وصايته على الشرق واستباح حرمانه ، واستغل ثرواته

المفهوم الثالث : مطلب استعماري :

هو الأسلوب لفهم الشرق من أجل السيطرة عليه ، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه .
وهذا المفهوم هو الذي فضح الاستشراق ، وهو يمثل البعد الثالث لرسالة الاستشراق حيث أصبح أداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب .
لمن أجل ذلك الهدف الاستعماري درس الشرق سياسيا ، واقتصاديا واجتماعيا وأيديولوجيا وعلميا بل وخياليا كذلك .. ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الاستعمار وميول الغرب الاستغلالية .
من هنا كان الاستشراق يمثل مجموعة اهتمامات الغرب بالشرق دينيا وثقافيا وبضائع وموارد وسوق عمالة : «سوق قطع غيار » للغرب ، وإرساء فكرة أن العالم الشرق والإسلامي يمكن أن يكون معملا للفكر الغربي والبحث العلمي .
ومن هنا كان الاستشراق : أداة استعمارية ساهم بشكل جدي في توسيع الصراع بين الغرب والشرق وزج بالإسلام في حلقة الصراع - الإسلام والمسيحية الغربية - ومع اليهودية وتحريف القرآن وإدعاء محمد النبوة .. والعرقية وصحراوية الثقافة والعقل الأرامي والعقل السامي .. إلخ ، وكانت

الصورة المتوقعة لهذا الزيف الثقافي أن يزداد جشعا في نهش الشرق ، مادام الشرق قد صوروه بصور متخيلة ليظل الغرب متميزا عنه ، ويبقى الهدف مع ذلك واضحا .

ويستعرض رضوان السيد^١ التيار الانتقادي للمستشرقين ، فمنهم من يصف أعمال بعض المستشرقين بأنها تقدم صورة شهولية ساذجة ، والبعض الآخر لا يخرج أعماله عن تقارير مخابرات سريعة .. وكلتا الرؤيتين تقدم رؤية الشرق مستندة إلى مركزية غربية .. لذلك كان الاستشراق - في نظر هؤلاء النقاد - يتناثر وينحل في تخصصات متباينة كالسارخ .. والاقتصاد .. والسياسة .. إلخ ، لم يعد هناك عالم واحد اسمه : الاستشراق . بل هناك عوالم متباينة يحمل كل منها عنوان المجال الذي يهتم به . وإذا كانت مفاهيم الشرق ضبابية فإن مفهوم الاستشراق غدا كذلك ضبابيا .

بل إن الأوساط الغربية الأكاديمية التي تهتم بالتخصص الدقيق ، ترفض الاستشراق وترى أنه لم يتقدم ، ولم يصبح بعد أحد مجالات المعرفة الانسانية الهامة . من هنا تفهم اصرار « إيف لاكوست » على أنه ليس مستشراقا في المقابلة التي أجرتها معه مجلة الإنماء العربي في العدد الثاني .

ولماذا لا يتبرأ منه بعدما دفع تاريخه بالصراع بين الشعوب وروح للعرقية ؟
أليس هو الذي خطط للاستعمار كيف يستغل الشرق اقتصاديا وثقافيا ؟
وأليس هو الذي ساهم عن قصد متعمد تحت ستار الأكاديمية في تفتيت الشرق الإسلامي .

(١) ثقافة الاستشراق وعلاقات الشرق بالغرب - إسهام مهدي لرودى بارت مجلة

معهد الإنماء العربي ، عدد ٣١

والى هو الذى أسس باسمه ، بالأكاديمية والجامعة وقوانين البحث العلمى قاعات البحث العلمى لدراسة الإسلام ... مايسمى بالإسلام العثماني . والإسلام العربى والإسلام السنى والإسلام الشيعى .. والإسلام المذهبى والإسلام المحمدى . ومازال يتسج : الإسلام الأصولى والإسلام الارهابى والإسلام البترولى .

وأنه فى النهاية هو الذى أوجد مقولات : العرق صحراوية الثقافة ومحمد والجنس .. وبشرية القرآن .. والعربى والقرصنة .. وليالى الأئس فى الشرق . وأنه عليه وحده تقع مسئولية توتر العلاقات بين الشرق والغرب . وتقديم الإسلام مشوها الى أوروبا ، ووضع الوثيقة الشرعية للصراع الفكرى والثقافى بين الغرب والشرق فأحدث جرحا عميقا لا يندمل بين الغرب والإسلام .

فمن هو المستشرق ؟

يحدده ميكائيل أنجلو جويدي بقوله : وليس صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب بالذى يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة ، أو يستطيع ان يصف غرائب عادات بعض الشعوب ، إنما هو من جمع بين الانقطاع الى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التى أثرت على تكوين الثقافة الانسانية . هو من تعاطى درس الحضارات القديمة ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة فى تكوين التمدن فى القرون الوسطى مثلا أو فى النهضة الحديثة وفى هذه الكلمات مايدل على إمكان بل وجوب التعاون فيما بين الشرقيين والمستشرقين ، إذ لاشك أنه قلما أتبح لمن لم ينشأ فى بلاد الغرب مثلا أن يجد الاجادة كلها فى معرفة هذه اللغة الشريفة وآدابها وأن يصل الى درجة التفوق التى أدركها علماء الشرق وأئمة اللغة العربية^(١) .

(١) علم الشرق - وتاريخ العمران - ميكائيل أنجلو جويدي .

إن جويدى يؤكد دائما - فى رسالته علم الشرق وتاريخ العمران - وهى أربع محاضرات ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية فى القاهرة ، وهو من أساتذة روما - على الحوار والتعاون حتى أنه أطلق لقب أمراء المستشرقين على أولئك النفر المتعاون مع مفكرى الشرق .

فيقول : صاحب ذلك المصطلح ، إنه إذا جمع علماء الشرق بين فضلهم فى البحث عن ماضيهم وعن قواعد لغاتهم ، وآثارهم الأدبية ، وبين الوقوف على ماسبق فى العالم المتمدن من رونق العمران ومن صيغ الحياة الروحية المختلفة « خصوصا فى العالم الكلاسيكى » فمن الممكن أن نسميهم : « أمراء المستشرقين » لو أن من المؤلف توزيع هذه الألقاب كما وزعت على الشعراء المعاصرين .

والخلاصة أنه فى التعاون بين المستشرقين والشرقيين سر النجاح فى تقدم هذه العلوم .

ولاشك فى أن هذا الاقتراح وهو تعاون الشرقيين مع المستشرقين ، وضع أساسا جديدا لتوثيق العلاقات بين ثقافتين ، والتأكيد على وجوب التفاهم والتعاون نحو مرحلة جديدة .

يعرض أنور عبدالمملك فى دراسته^(١) عن الاستشراق لتعريف جويدى للـ « مستشرق » فيقول : « إننى أعنى بالمستشرق هنا ، أولئك الذين يدرسون الشرق الأدنى إذ أن فكر الهند والصين هو بالتأكيد فكر ذو أهمية رئيسية لمعرفة سبل الدهن .. لكنه ليس على أية صلة حيوية بنا » هذا من حيث التعريف العام للمستشرق^(٢) لكن جويدى لا يرضى عن ذلك التعريف

(١) (الاستشراق فى أزمة - أنور عبدالمملك - ترجمة : د. حسن قيس - مجلة معهد الإنماء العربى - الفكر العربى عدد ٣١ - الاستشراق التاريخ والمنهج والصورة ١٩٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٠ .

للمستشرقين لأنه تعريف فيه عمومية غير مطلوبة لأنها تجعل دراسة الشرق الإسلامي غير مستهدفة .. لذلك عدل عنه إلى تعريف أشد خصوصية وأوضح هدفا وهو : « وأما نحن المستشرقين فالواقع أننا ننظر باتجاه الثقافات التي يظهر فيها العنصر الشرق بأتم تعبيره ، أى باتجاه الثقافات القومية الصافية ، باتجاه الإسلام ، مثلا ، ليس فقط من أجل إعادة خلق عالم أجنبي – يتمتع على كل حال بقدر كبير من القيمة والكفاءة العلمية – بل « أيضا ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من أن نفهم كل الفهم طبيعة العناصر التي كونت ذلك الانصهار الرائع الخصب الذي حصل في المنطقة الهلينية^(١) . . . » .
وذلك يعنى في رأى أنور عبد الملك : أن على المستشرق ، إذا شاء أن يستوفى شروط الاستشراق أن ينطلق من العالم الكلاسيكى – لكي يقع في موقف معاد للتاريخ ، ولكن ينبغي أن نرى جيدا أننا مازلنا – تاريخيا – في عصر الهيمنة الأوروبية .

مجالات الاستشراق :

نشأت عن هذا التيار الفكرى الاستشراق المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية في الغرب : فرنسا ، ألمانيا ، هولندا ، أسبانيا ، إيطاليا ، روسيا ، الولايات المتحدة . ويميز يوسف أسعد داغر^(٢) : بين ثمانية عناصر إيجابية في الدراسات العربية الإسلامية : دراسات الحضارات القديمة ، تجميع المخطوطات العربية في المكتبات الأوروبية ، إنشاء لوائح بالمخطوطات ، نشر

(١) دليل الأعراب الى علم الكتب وفن المكتبات ١٩٧٤ نص من أزمة الاستشراق ص ٧٢ .
(٢) الاستشراق في أزمة .

مؤلفات عديدة مهمة ، إلقاء درس منهجي - بطريقة الاستشراق - على العلماء الشرقيين ، تنظيم مؤتمرات الاستشراق ، كتابة بعض الدراسات - التي كثيرا ما تكون ناقصة ومغلوبة من الناحية اللغوية لكنها متماسكة ودقيقة من حيث المنهج . تلك مجالات الاستشراق لاشك في أنها قد ساهمت في تسيه الوعي القومي في مختلف بلدان الشرق وفي تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية . ذلك من جهة ، غير أنه من جهة أخرى ، فإن هذا العمل نفسه كان مشبعا إلى حد بعيد جدا كما يقول أنور عبدالمالك بالمسلمات - وبالعادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية - الفلسفية التي كان لها أن تحبط ، في كثير من الأحيان ، نتائج الأعمال الدؤوبة . وقيمتها العلمية . ولما كان المستشرقون خليطا في قولنا من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والموظفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين ، الذين كان هدفهم يقتصر على التعرف على الحقل المزمع احتلاله والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انقيادها للغوى لأوربا .. كما يقول جاك بيرك^(١) . إن زاوية النظر التي اعتمدها « المكتب العربي » قد جعلت دراسة مجتمعات شمال أفريقية موجهة منذ البداية .

تصنيف الاستشراق :

يذهب بعض النقاد للاستشراق إلى محاولة التخفيف من النقد الهجومي عليهم بما يحاوله من إيجاد تصنيفات عقلية إلى أن هناك ثلاثة مستويات للاستشراق :

معتدل في رؤيته وهو الجامعي الأكاديمي .

(١) العرب بين الأمس واليوم - ترجمة كمال أبوديب .

.. يتوسط بينهما ...

متطرف وهم الذين نبتوا في حضن الاستعمار .
وذلك من حيث هي قسمة عقلية مقبولة غير أنها خالية تماما من الصدق .
لأن الخارج وهو الواقع لا يخضع لها . ولا تلقى قبولا بين أوساط النقاد
للدراستات الاستشراقية فترى إدوارد سعيد يقسمه الى :

.. الاستشراق الجامعي .

.. الاستشراق المسيحي الغربي أو الديني .

.. الاستشراق المعلمن المبطن .

.. الاستشراق السياسي^(١) .

ويذهب مكسيم رودستون الى تقسيمه الى ثلاثة تيارات :
- تيار نقص : يقوم على الشعور بتفوق الغرب واحتقار جميع الحضارات
الأخرى .
- تيار رومانسي تغريبي : يستشوق بمتعة عبق الشرق ، ويزيد هذه المتعة
فقر الشرق المتزايد .
- تيار علمي تخصصي اهتمامه الأساسي على ماضي الشرق .

وهناك تقسيمات أخرى مثل :

- تيار تقليدي وهو الذي ساير الاستعمار وجعله أدواته .

- تيار تجديدى ..

بيد أن إدوارد سعيد يعطيه سمة واحدة تحت مسمى واحد وهي :

(١) الاستشراق - ترجمة كمال أبودييب .

« مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق »

مهما تعددت مفاهيمه وساهم نشاطه الذئوب على جعلها متداولة فهو وجه واحد من حيث كونه ذا دلالة أكاديمية أى بحثا جامعا .
أو كونه أسلوبا فكريا قوامه تمايزان أساسيان : وجودى ومعرفى بين غرب يدعى أنه يعرف نفسه تماما - بنفسه - وبين شرق قابل لمعرفة الغير ، وعاجز ذاتيا عن معرفة نفسه .
وكونه متداخلا مع بنى الدولة الحديثة فى الغرب ، ومتشابكا مع توجهات المجتمع المدنى فيه ، ولوحدة الهدف صار « مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق » .

ويذهب أنور عبدالمالك إلى تصنيفهم إلى صنفين :

« المستشرقون الأتقاح » .

« خليط مؤلف من جامعيين ومخبرات ورجال أعمال وتبشير » .

ويعتبر الفريقان أن الشرق والشرقيين « موضوع الدراسة » موسوم بالغيرية شأنه شأن ما هو آخر ، سواء كان « ذاتا » أم « موضوعا » ..
موضوع الدراسة هذا - الشرق - يوصف كما يليق به ، بأنه سلبى . لا يساهم فى الأمور ، « تاريخية » فضلا عن أنه فوق كل ذلك معدوم النشاط ، معدوم الاستقلال ، معدوم السيادة تجاه نفسه ، الشرق أو الشرق الوحيد ، أو الذات الوحيدة ، التى يمكن التسليم بها فى النهاية القصوى ، هو الكائن المستلب ، أى الذى إذا قيس بغيره كان أمرا آخر . إنه الكائن المطروح والمفهوم والمحدد - والمفعول به - من قبل الغير . من هنا يتبنى الفريقان قصورا جوهريا لبلدان الشرق المدروس وأمه وشعوبه .. وهو شعور يقوم على العرقية والعنصرية . وفى كلتا النظريتين يتأثران معا بالمحورية الأوروبية .

الاستشراق الأكاديمي وضعف صوته :

يقول بارت : لم يتبع تطور الاستشراق من مرحلة التحول النهاى إلى علم قائم على النقد التاريخى ، طريقاً مباشرة مستقيمة ، ولم يتم للاشتغال بالشرق ومحمد وبالدين الذى نشره - التحرر من طريقة البحث اللاهوتية المبنية على الدفع والمشاحنة إلا فى العصر الحديث وتدرجياً .

ولكن الجهود التى بذلت لإنصاف عالم الشرق ورسم صورة له مستمدة من المصادر تعرضت من حين لآخر لاتجاهات اعترضت سيلها ، أو غطت عليها وأدت إلى تشويه صورته .

ويرى بارت أن تطور الاستشراق وتشكله كعلم لم يكن سهلاً إنما كانت تكتشفه صعوبات كثيرة منها : مدى استعداد الناس (الغرب) للانصراف عن الآراء السبئية ، وعن كل لون من ألوان الإنكار الذاتى ومدى اعترافهم لعالم الشرق بكيانه الخاص الذى تحكمه نظمه الخاصة ... فعندما اجتهد بعض المستشرقين فى نقل صورة موضوعية قائمة على النقد التاريخى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، بسبب تلك العوائق ، ولكن الجهود متجهة إلى فهم الموضوعات فهماً موضوعياً .

وأنه ظهرت دراسات تحمل هذا المعنى العلمى الموضوعى ذات تأثير متنوع ترى فى النبى العربى أداة الله ومشرعاً وحكيماً ورسولاً للفضيلة وناطقاً بحكمة الدين القطرى مبشراً به .

وصحب هذا الاتجاه خمس رومانتيكى لكل ما هو شرق . وجوته والديوان الشرقى ، وصف أعمسال جوتسه هانس هانريش شيسدر (١٨٩٦ - ١٩٥٧) ، يصح أن يسمى بالعهد الأعظم لبحسوث الشرق . . ويرى بارت أنه لا علاقة به بالاستشراق . .

ثم ظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلة عن الإسلام والحضارة الإسلامية وحل محل الآراء التي تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت والتي تمثلت في وصف محمد (ﷺ) بأنه شيطان . ووصف القرآن الكريم بأنه مزج من اللغو الباطل ، حل محلها آراء أخرى أقل عنفاً وأقرب إلى الاعتدال والإنصاف للإسلام والمسلمين^(١) .

لا نستطيع أن ننكر عمل الاستشراق كله فإن هذا والله لعين الظلم ومثل هذا الحكم يقتضينا تصنيف عمل الاستشراق - إذ ليس وارداً ونحن نناقش تصنيفات الاستشراق أن ننكر عليهم تباين أعمالهم ، فمنهم من كانت له أياد بيضاء على الثقافة الإسلامية والعربية . وتحقيق التراث وإخراجه ، وساهم بشكل فعال في توضيح المفاهيم الإسلامية والثقافية .. غير أننا نستطيع ، بجانب ذلك الاعتراف ، أن نعددهم مدرسة قائمة بذاتها ، أو تصنيفاً له مسمى واحد يشكلون قوة أمام قوى الاستشراق المعادى للموضوعية المتحررة من أطماع الاستعمار . إنما نستطيع القول بأن ثمة أفراداً يدرجون تحت كل التقسيمات التصنيفية للاستشراق ذوى نظافة وشرف لكنهم هامشيون في الاستشراق المعاصر ، وهامشيون في نطاق الثقافة العربية ، وهم الذين يحسون عمق الأزمة المنهجية ، وفساد علاقة الشرق بالغرب .. حتى بلغ بهؤلاء المخلصين من المستشرقين الذين قرأوا الإسلام بعمق وصفاء وإخلاص ونزاهة بحث ، أن اعتنقوا الإسلام .. حتى ذلك الماركسي منظر النظرية الاشتراكية في فرنسا جارودي .. ومن الذين أعربوا عن طموحاتهم نحو عودة تجديد العلاقة بين الشرق والغرب على أسس جديدة : هيلموت شميت حين قال : أريد أن

(١) الاستشراق ص ٣٢ - د. محمود حمدي زقزوق .

أكتب عملاً عن اللقاء الإنساني والحضاري في ديانات التوحيد ، على الخصوص ، المسيحية والإسلام .

من المفرح أن نلاحظ بأن الغربيين ، عدداً ونوعية ، انخرطوا في عهد جديد لفهم الإسلام تفهماً مطابقاً لصورته الحقيقية . من بين هؤلاء أخص بالذكر موريس بوكاي ، مارسيل بوزار ، فانسان مونتاي ، روجي جارودي ، ميشال لولونج ، مارسيل بوزار الذي حاول دفع بعض قطاعات الجمهور الغربي للتخلي عن العرقية لتستطيع فهم تطلعات الشعوب الإسلامية المشروعة . ما كتبه بوزار يهدف أيضاً إلى مكافحة المسبقات الأكثر رواجاً التي سبق أن أثارت يقظة الوعي القانوني في أوروبا القرون الوسطى وعياً قانونياً قادراً على تقديم إسهامه الأساسي في ضبط القانون الدولي ، بفضل أحكامه الحامية لحقوق الإنسان وبفضل حبه للسلام الديناميكي القائم على العدل لبلوغ ذلك ، على الغرب أن يكف عن الامتلاك التعسفي للعقل الديكارتي ، والاطمئنان الذي يضيفه ، في الوقت الذي يعزو فيه الشخصية الباسكالية ، التابعة أساساً والعاطفية ، لأي مجتمع آخر ، وخاصة الإسلامي .

وتعليق فانسان مونتاي البليغ عن أفكار رونان ، والعروض الإضافية العديدة التي كرسست للدفاع عن الإسلام ضد المسبقات الغربية ، وثيقة الفاتيكان الخاصة بغير المسيحيين حيث شرعت الكنيسة في نقد معظم الأحكام المغلوطة التي صدرت ضد الإسلام . لكن بإمكاننا مع ذلك التذكير بأن الإسلام ، في منظار الوعي الغربي المشوه هو التعصب ، هو القدرية ، هو غياب التسامح ، هو رفض العلم ، حول جميع هذه التهم يستطيع المرء أن يستفيد من قراءة مارسيل بوزار في إنسانية الإسلام ، وفانسان مونتاي في مفاتيح الفكر العربي ، وموريس بوكاي في التوراة ، القرآن والعلم .

أظهر هؤلاء المؤلفون الفلاسفة وغيرهم تعاطفاً كبيراً مع الإسلام وخاصة

فولتير الذى حاول أن يستخلص منه المثل الإنسانية ، لشجب الحكم المطلق وعدم التسامح للذين كانوا حينذاك في فرنسا نظام حكم شجياً عنيفاً .
حتى أن مؤلفاً غير ثورى بالمرّة مثل مونتسكيو حاول أن يمرر أفكاره السياسية الإصلاحية تحت حجاب شرق زائف ، عندما كتب الرسائل الفارسية .

ومن الحق أن يقال ان بعض الكتاب المشهورين الممتازين قد حاولوا الإقرار بمزايا الإسلام - فلم تلق محاولاتهم نجاحاً كبيراً ، مما انفك جمهور القراء يصل كل شيء تقريباً عن النبي وعن دينه الملهم غالباً بالمبادئ النصرانية ، وعن الحضارة النيرة التي اتفق بها نفوذ واسع في الحضارة الغربية^(١) .

هذا النموذج يعرض الثقافة الإسلامية بصورة علمية وبشكل يؤثر عقلاً في الرأي العام المثقف الأوربي . ولكن الواقع كان غير ذلك . فمعظم العلماء ورجال الثقافة في العالم الإسلامي وأقاموا في الغرب ينتمون إما إلى النخبة المتأثرة بالغرب التي كانت لا تعرف جيداً ثقافتها الخاصة التي انقطعت جذورها العميقة عنها ، وإما إلى فئة الباحثين الدينيين الورعين الذين كانوا لا يعرفون حقيقة العصر ومشاكله واكتفوا ببناء مسجد ونشر طريقة صوفية .
والواقع أن هناك كتاباً معاصرين يعتمدون أحياناً يدافع البرهان على التجديد الذي أخذته النهضة في بلادهم إلى التكرار لماضيهم بالذات ، إما عن طريق اشارتهم إلى بعض جوانب تراثهم الغامضة ، وهذا موجود في كل تراث وإما عن طريق استهانتهم بفلسفة الفترات السابقة وإنتاجها الفني . وهذا معناه أنهم يريدون ضرب الماضي بالاستهانة به والتحقيق بالبحث عن مواطن « اللا عقلية في الفكر العربي » وما يشابه الطرف والملح .

(١) يراجع مجالى الإسلام - حيدر بامات (ج. ريفوار) ترجمة . عادل رعيتر ١٩٥٦ م
الخلي .

الاستشرق الصليبي والصراع مع الإسلام :

وذلك حينما اقتحم الغرب الاستعماري الشرق - بأسلوب غير حضارى - بحافل الصليبية - وجده معينا لا ينضب من الإثراء المادى الأوروى ومشاريعه الاستعمارية ، كما وجده أيضاً ذا حضارات قد شكلت ملاذاً من الأزمات الروحية والثقافية التى تهب على أوروبا بين فترة وأخرى من باب الأندلس . انفتح واسعاً على أوروبا فظهرت ملامح الفكر الفلسفى منذ ١١٠٠ متمثلة فى أغاني « التروبادور » والشعر الوجدانى ... وفلسفة ابن سينا الإلهية وخاصة كتابه « رسالة فى العشق » وفلسفة الرازى ...

كما أن ما جنته فرنسا من « غنائم » فى الحروب الصليبية التى تعتبر فى علم التاريخ ، بداية للسياسة الاستعمارية فى فرنسا فى الشرق .. من مخطوطات ومكتبات وآثار وتحف فنية غيّر إلى حد كبير طابع تصورات الأوربيين عن الشرق وقرب الصورة الشرقية من الواقع ، وحلت المعلومات الصحيحة فى ميدان الجغرافيا محل التصورات المفعمة بالخيال . وكان الاحتكاك المباشر بالشرق طيلة فترة الحكم الصليبي للشاطيء الشرقى للمتوسط ، مساهماً فى معرفة الشرق على حقيقته وعلى كنوزه وثقافته . وأنه ليس بالمتعة والجنس وعالم المتناقضات .

ومما زاده عجباً إلى حد الألم فشل الحروب الصليبية فى السيطرة على الشرق ، سياسياً وعسكرياً ، وما كان ليتأقى للغرب بعد الوقوف على حقيقة الشرق ، وفشل الحروب الصليبية أن يكون أميناً على نقل صورة الشرق ، وكيف يكون أميناً وقد تعلم منه درساً فى الهزيمة جعله لا يستطيع نقل صورة غير التى نقلها ، صورة سلبية ساهمت فى تشويه الشرق المسلم ، ويرى عجز

الغرب واضحاً أمام الشرق وثقافته ، فولد لديه الشعور بالنقص والعجز عن إنتاج ثقافات روحية أمام ميل الغرب المادية^(١) .

وفي أعقاب الحروب الصليبية اتسمت علاقة الغرب الاستعماري بالتناقض والازدواجية ، فمن جانب ظهر الموقف الإيجابي من الفكر الفلسفي والعلمي والجمالي الإسلامي ومن جانب آخر ظهر الموقف العدائي من الإسلام كدين ونظام اجتماعي وأخلاق فدخلت الثقافة الإسلامية عصر النهضة بوصفها ركناً أساسياً من أركان النهضة الثقافية سواء في تأثير إنجازاتها العلمية والفنية المباشرة بوصفها الجسر الذي عن طريقه تعرفت أوروبا على منجزات الحضارات القديمة وخاصة اليونانية - والرومانية - والإسلامية . وقد كرس تلك العلاقة إلى " الإسلام ، دانتي اليجيري وهو من أشد الاستشراق سوءاً في عمله الشهير " الكوميديا الإلهية " الذي جسد الروح الصليبية فيها وهي الملحمة الشعرية - الدينية المعبرة عن التصور المسيحي للعالم الأرضي وعالم الآخرة والتي مثلت الفكر المسيحي الفلسفي والجمالي لقرون طويلة وألهمت أعلام النهضة في شتى مجالات الفن والأدب والفكر .

فقد أظهرت آخر الدراسات العلمية الأوروبية مؤخراً أثر الإسلام ورؤيته للعالم الآخر وأثر العديد من المفكرين المسلمين (ابن عربي ، وابن سينا ، أبو العلاء المعري ، ابن رشد ، ابن مسرة ، الغزالي ، الفرغاني ، وغيرهم) على فكر دانتي ، من خلال اطلاعه على الترجمات التي ظهرت في عصره في أسبانيا وخاصة كتاب (Liber scale wher scale) المتضمن للرواية الشعبية العربية - الأسبالية لمفهوم الآخرة . فقد عكس دانتي في " الكوميديا الإلهية " موقفاً عدائياً من الإسلام والنبي محمد (ﷺ) مبكراً صورة الدين .

(١) الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ص ٣٠ - د. زينات بيطار .

المسيحي « الحق » ، معتبراً الإسلام « كفرة » ، وهرطقة ، وهو أول من قارن صورة القديس فرانسوا الأسيزي « المؤمن » الحقيقي وصورة السلطان المسلم « المتعجرف » والكافر ، مشياً فقط على السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث برزت صورته إيجابية في مجمل نظام الدولة الإسلامية . وهذا الموقف هو نتيجة مباشرة لفشل آخر الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي التي تمت في زمن شباب دانتى .

إن تأثير دانتى على نشوء الثقافة القومية الإيطالية ، وعلى منظومة الفكر الأوربي للنهضة ، شمل أيضاً تأثيره على مجمل فناني عصره في علاقه بالإسلام ديناً وفلسفة . وتأثير دانتى والكوميديا الإلهية لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر - إذ تعتبر الكوميديا الإلهية أحد المصادر الأساسية التي لجأ إليها الرومانسيون كمعين فني وإبداعي ولا سيما أن ترجمتها إلى اللغة الفرنسية قد ظهرت في فرنسا عام ١٨١٣ أى إبان فترة الحماس لدراسة تاريخ القرون الوسطى المسيحي والأوربي مع تطور علم التاريخ في فرنسا آنذاك^(١)

كان غيوتودى باندوني ، رائد إظهار الموتيف الشرق الإسلامي في فن التصوير الأوربي ، وهو معاصر دانتى ومؤسس النهضة في فن التصوير الإيطالي والأوربي بشكل عام ، والذي ارتبطت باسمه إنجازات إبداعية شكلت منعطفا تاريخيا في تطور الصورة التشكيلية الأوربية وتقنياتها . فمنذ بداية حياته الفنية أدخل صورة الشرق المسلم في بنية اللوحة التاريخية في فن التصوير على الجدران ، *Peinture Vonumentale* والمستقاة من الإنجيل والتوراة وحياة الرسل والقديسين المسيحيين . وفي جدارياته التي زينت كاتدرائية كاييلا

(١) الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ص ٣٣ - د. زينبات بيطار - سلسلة - عالم المعرفة ١٩٩٧ .

باردى فى سانتا كروتشيه (فلورنسا) عكس غيوتو روح العصر التى ميزت الثقافة الإيطالية فى القرن الرابع عشر ، والقائمة على مقومات الأيديولوجية المسيحية المتزمتة لموضوعها المباشر لسلطة الكنيسة وسياستها وللإقطاع . وقد صور فى حينها فصولا من حياة القديس فرانسوا الأسيزى الذى شارك فى الحملة الصليبية الخامسة ، وزار مدينة دمياط ، وكما تروى الأسطورة الشعبية المسيحية فإنه قابل السلطان الكامل لإقناعه باعتناق الدين المسيحى وبهذه الجداريات كرس غيوتو الصورة النقدية العدائية للإسلام التى بدأها دانتي (فى الفكرة) حيث تبدو فى جداريته صورة السلطان الكامل المتطرس ، الدنيوى وأمامه يقف القديس فرانسوا الأسيزى المتصوف ، المتواضع ، المؤمن الذى لا تحرق جسده النيران لعمق ديمانه ، ود زحمته ، الروحى الطاغى على إحساسه بجسده والعالم الخارجى ، هذه الصورة الإيقونوغرافية تتضمن الدلالة على أن الدين المسيحى هو الدين الإلهى القائم على إيمان حقيقى وتضحية بالنفس ودعوة المسلمين للتخلى عن معتقداتهم ليطلقان ألوهيتها واعتناق المسيحية . وهذه الصورة ليست إلا انعكاساً للأيديولوجية المسيحية فى القرون الوسطى فى موقفها العدائى من الإسلام من حيث المضمون . أما من حيث الشكل فقد كرس غيوتو فى فن التصوير التاريخى - الدينى بواكير النهضة ، ووفقاً لمبادئه اللذين قامت عليهما ثورته فى فن التصوير : مبدأ محاكاة الواقع ، ومبدأ منح اللوحة الطابع المحلى أو الصيغة المحلية ^(١) .

صورة الإنسان الشرقى (زيا ومسحبة عرقية) الذى يقطن فى منطقة جغرافية كانت أرضها مسرحاً لأحداث التوراة والإنجيل وأبطالهما . من هنا درجت العادة فى تصوير عناصر الطبيعة والعمارة الشرقية (من نباتات

(١) نفس المرجع ص ١٦٠ .

وحوانات وطيور كالجمال والتخيل والطواويس والأسود ، والقردة والتين وغيرها من الحيوانات الأسطورية المرتبطة بأرض الشرق والمتجسدة في فنونه (في فن تصوير بواكير عصر النهضة في أعمال تلامذة غيوتو وجيل الفنانين الذين تأثروا بثورته الفنية (ستيغانودى ريفيو جنتيلودى فابريانو ، نالى دايتشى ، بوتيتشيللى ، فيليينوليسى ، ساستيا فرايياتو إنجليكا وغيرهم) وقد انتشر النزوع نحو إدخال العناصر الشكلية ، الشرقية الإسلامية في تصوير الموضوعات التاريخية الدينية في مختلف المدارس الفنية الإيطالية لعصر النهضة (فلورنسا ، أوميريا ، رافينا ، روما ، جنوا)^(١) .

يبقى السؤال : إلى ماذا استند فنانون هذه المرحلة في مسألة محاكاة الصورة الشرقية الواقعية ؟ في الحقيقة لم يكن لدى الفنانين آنذاك إمكانية لزيارة الشرق الإسلامى ومعاينة صورته الواقعية والحقيقية . فاعتمد معظمهم على كتب الرحالة والحجاج والمبشرين والقديسين ، التى كان يرافقها في بعض الأحيان وصف وخرائط جغرافية أو رسوم توضيحية للأماكن المقدسة وأنماط العمارة والسحنة العرقية والأزياء ، إضافة لذلك هناك التجار المسلمون الذين كانوا يؤمون موانئ إيطاليا حيث تسنح الفرصة للفنانين لتصويرهم وشراء بضائعهم ، فضلا عن تجارة الأدوات والنتاج الحرفى الفنى والتزيينى (Les arts deatifs التى شكلت مصدرا أساسيا لمحاكاة الصورة الفنية والأسلوب الزخرفى الإسلامى - الأرابسك . لذا كانت الصورة الشرقية في أعمالهم مجتزأة وتزيينية في أغلب الأحيان .

وفي القرن السابع عشر وفي فرنسا كانت فاتحة علاقة جديدة وه منهجية ، بالشرق إذ أسفرت النجاحات العلمية والفنية - في الثقافة الأوربية ، وارتباط

(١) نفس المرجع ص ٣٤ .

المصالح السياسية الأوربية بالشرق المتوسط عن دخول « المسألة الشرقية »
حيز المهوم العلمية الأوربية . فافتتحت أقسام للدراسات الشرقية في العديد
من الجامعات الأوربية (هولندا ، إيطاليا ، إنجلترا ، فرنسا) وبدأت عملية
رصد ودراسة الحضارة الشرقية القديمة والمعاصرة تتخذ الطابع العلمى
الاستقصائى من أجل النجاح فى التوغل فى البنى الروحية والمادية للمجتمع
الشرقى بغية السيطرة عليه . كما باتت دراسة الشرق مهمة رسمية حكومية
- ومؤسسية - تتناحر الدول الأوربية فيما بينها على تطويرها بعد أن حلت
مقاييس السياسة الاستعمارية محل المقاييس الدينية فى محور العلاقة بالشرق
الإسلامى .

وسجلت هذه الحقبة التاريخية نجاحا لفرنسا فى نيل امتيازات واسعة من
الدولة العثمانية أعادت لها موقعها التجارى فى موانئ المتوسط بعد أن حصل
الملك فرانسوا الأول عام ١٥٣١ من الباب العالى على حق السيطرة على
التجارة فى حوض المتوسط فانفتحت مدن أسطنبول وبيروت ودمشق وصيدا
والقدس والقاهرة أمام جنافل التجار والحجاج والمبشرين والإرساليات
والبعثات الدبلوماسية والعلمية والتي غالبا ما كان يرافقها الفنانون . ارتبطت
منذ ذلك الوقت مصالح فرنسا الاقتصادية والسياسية بهذا الجزء من الشرق
- أى الشرق الإسلامى - الولايات العثمانية وإيران . لذا حصرت كل
جهودها العلمية والثقافية وجندت مختلف الطاقات الدبلوماسية والمؤسسية
لتعزيز امتيازاتها فيه . التشكيلى ، والموسيقى ، والفكر الاجتماعى -
الفلسفى ، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر تشكلت مجموعة من الصور
والأفكار والقوالب الفنية الاستشرقية نستطيع حصرها فيما يلى :

١ - إنشاء المكتبة الشرقية الملكية بإشراف الملك لويس الثالث عشر
وريشيلو ، ومن ثم رعايتها من قبل الملك لويس الرابع عشر وإغنائها

بالمخطوطات ، والتحف والكتب ، والمنمنمات والنقود وشتى النتاجات الفنية التي كونت الأساس للدراسات الشرقية في فرنسا في أواسط القرن السابع عشر . وظهر الترجمات للمخطوطات القبطية والسريانية والعربية ، والعديد من كتب التاريخ التركي المعاصر (٢٥ كتابا عن تاريخ تركيا ، وترجمة القرآن ، وكتب يوميات ومذكرات التجار الرحالة والدبلوماسيين ، ونخص بالذكر كتب . ف برييه وج . تافريه ، وشاردان) وقصص ورسائل القناصلة والسفراء الفرنسيين في تركيا ، والأمير ميزي ، والماركيز نواستيل بشكل خاص ، الذين صارت مؤلفاتهم مصادر إلهام أدبي للعديد من أعلام الأدب الفرنسي (راسين ، موليير ، كورني ، وغيرهم)^(١) .

٢ - هذا وقد غزا (الموتييف) الشرق - التركي والإيراني الأدب في القصة والشعر و التراجيديا والكوميديا ، (١٠ قصص في موضوعات تركية ، وعرضت خمس مسرحيات ، بموتييف ، تركي لذكر منها مسرحية « بايزيد » و « روكسانا » لراسين ، و « السيد » لكورني وسليمان أغا و « البورجوازي النيل » لموليير) وهي تعتبر ثمرة اشتراق القرن السابع عشر الفرنسي التي كللت جهود المؤسسة الاستعمارية الفرنسية بموسوعة « المكتبة الشرقية » لدير بليو عام (١٦٩٧ - ١٦٩٩) التي قدمت مسحا لتاريخ وجغرافيا وأخلاق وعادات وآداب الشرق الإسلامي ، وقد تضمنت تصورات سطحية أولية متشعبة بالمفاهيم اللاهوتية للقرون الوسطى المميزة للفكر المسيحي الأوربي في عداله للإسلام كعقيدة وفكر سياسي واجتماعي . وبالإضافة إلى ظهور ترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » (١٧٧٤ - ١٧١٧) لغالان ، وبها تكرست مجموعة من « الكليشيات » أو الستريوتيب عن

(١) نفس المرجع السابق .

الشرق الإسلامى وضعت المسلم بشكل عام فى إطار من المعادلات الأخلاقية والاجتماعية تتجمع وتتركز حول الشرق ، الدموى ، المضحك ، الساخر ، الساذج ، الميال إلى الانفعالية والخفة والطرب ، المتعصب دينياً ، المادى والحسى . وأدت إلى تأطيره فى شتى أنواع الفنون : الكوميديا ، الأوبرا بوف : الدراما ، نذكر منها (« أركان محمد » ، « حجاج مكة » ، « أركان هلة » ، « سليمان الثانى أو الثلاث سلطانات » ، « قافلة القاهرة » وغيرها) . كما تظهر فى الأنواع الفنية السائدة : البروتريه صورة الحياة والبيئة وه العاريات ، والمناظر الطبيعية الصامتة . وفى كل المدارس الفنية السائدة فى فرنسا آنذاك : الأكاديمية ، والتسجيلية ، والواقعية والروكوكو^(١) .

وكما جذب أعلام فن التصوير الفرنسى للقرن الثامن عشر (أورواثو ، فواغونار ، بوشيه ، لانكويه ، لوهرنس ، كارل فان لو ، أميدى فان لو ، ليونار ، فان مور ، أفيد ، باروسيل ، ميلنغ ، فيفرى وغيرهم) .

فى هذه الحقبة من تاريخ الفن الفرنسى لوحظ النزوع نحو الموضوعات السطحية والحسية والمسلية ، الخالية من أية منفعة أخلاقية أو دينية أو وطنية ، والابتعاد عن الأسس الجمالية التى قام عليها الفن الكلاسى والموضوعات الدينية والتاريخية فظهرت اللوحات والأعمال الفنية القائمة على مبدأ « الفن للمتعة » . وه الفن المسلى « وه الفن للحياة » ، التى حاولت ارضاء الذوق الفنى للنخبة فى الميل نحو الخفة والطرب والاعتراف من مباحج الحياة . فسادت الألوان الشفافة الزاهية والعجينة اللونية المرنة ، وحلت الخطوط الخفيفة الرشيقة مكان الخطوط الصارمة والجافة الكلاسية . كما حلت الموضوعات التى تمثل حياة القصور وحفلات « الرقص » وه الغناء « وه الصيد »

(١) نفس المرجع السابق .

والموضوعات الحسية المثيرة في أعمال فنانى الروكوكو « بوشيه » فراغونار ،
لوبرنس ، لانكويه ، وغيرهم . كصور « المخطيات » و « الغانيات »
و « العاريات » وصور حياة الخلاعة والترف وكونه ممثلاً للشرق^(١) .

إن رؤية الشرق الإسلامى في الصور الفنية الشرقية التي طرحها ممثلو فن
عصر الروكوكو هي في الحقيقة رؤية للذات الغربية في استجابتها لتوازعها
الداخلية ولنظومة القيم والفكر السائد في فرنسا آنذاك . لذلك انفتحت صور
عصر الروكوكو الاستشراقية حول موضوعات وصور فنية شرقية محددة ،
مختارة ومنتخبة من الشرق لا تمثل الشرق وحسب وإنما تمثل الغربى : صور
حفلات « الرقص » و « الغناء » و « الموسيقى » ، وصور « الحريم »
والمخطيات الغربيات في زى السلطانات الشرقيات ، وصور « العشق »
و « الحب » وصور الحياة والبيئة الشرقية التي ترضى نزوع الغربى نحو
الاستعراضية ، والحسية والأبهة ، والفخامة ، والاحتفالية ، فقد غصت
الصالونات الفنية الرسمية منذ عام ١٧٤٢ - ١٧٤٣ حتى نهاية القرن الثامن
عشر بالعديد من اللوحات والبورتريئات الاستشراقية التي تصور مدام
بومبادور في « دور السلطنة الخارجة من الحمام » و « السلطنة تشرب
القهوة » و « السلطنة وجواربها » و « السلطنة في الحديقة » و « السلطنة في
السراى » . بريشة الفنان كارل فان لو ، وكذلك صورة « الأميرة مارى
كونفغرى في الزى التركى » بورتريه « ماريا أوليدا » الفرنسية في زى تركى
للفنان ليونارد ، ولوحة أميدى فان لو « مدام دى بارى » في مظهر سلطنة
وصور « السلطان العاشق » ، و « السلطان في الحديقة » وغيرها من
اللوحات التي تصور جلسات شرب القهوة والشاى ، وحفلات الرقص

(١) نفس المرجع السابق

والغناء بالزى التركى ، فضلاً عن دخول أسلوب الأرابسك الفنى فى بنية الديكور للعمارة والأثاث والخزفيات ، بحيث فرضت الموضة الشرقية - التركية بشكل أساسى نفسها على الواقع الفنى للعصر مما دفع بنقاد وباحثى تاريخ الفن لعصر الروكوكو إلى الاعتراف بأن ه الموضة التركية - الإسلامية دخلت صلب العادات الاجتماعية للطبقة الارستقراطية من النبلاء والدبلوماسيين والفنانين الذين ساروا فى شوارع باريس «بالقفطان والعمامة» بحيث «بدت باريس وكأنها حى من أحياء القسطنطينية» ، بينما يقول الأخوة .

النفس المريضة لا تفرز إلا مرضاً :

لعل عقدة النقص .. والكبت .. والعدوانية .. والمعاناة التى سادت أوربا بعد ملاقاتها الإسلام فى دياره هى التى زجت بفرويد لبحثها .. وذلك هو مركب فرويد الدائم الذى أشار إليه : مانونى (Manoni) عندما حاول تحديد الضمير الأخلاقى الغربى مؤلف سيكولوجية الاستعمار مستشهداً بـ «عاصفة» شكسبير ، واجه بروسبير (مثل الغرب المسيطر) وكالبيان (رمز المسيطر عليه) ^(١) .

النزاع بين الرجلين ، بين العالمين اللذين يمثلانها ، تلخصه تلخيصاً تراجيدياً هذه المسبة العميقة الدلالة التى يوجهها بروسبيرو إلى كالبيان :

(١) الإسلام اليوم - مارسل بوازار - اليونسكو ملحق بروسبيرو وكالبيان - الحبيب الشطى ص ٣٣ .

« لقد اغتصبت ابنتي » يسقط بروسبيرو على كاليان جميع الخطايا ، جميع المصائب التي تكبل ضميره والتي كتبها .

كذلك حافظ الغرب ، على امتداد تاريخه ، وفي وعيه الجماعي - على صورة آثمة للإسلام ، صورته هو الخاصة ، صورة الإسلام المشوهة ، تذكر تذكيراً غريباً بالمظاهر الخادعة بـ « مغارة أفلاطون » . الغربيون المحافظون يقولون بأن الغربيين استبطوا بطبيعة الحال القيم اليهودية - المسيحية التي غدت بذلك ، وفي الوعي الجماعي تبريرات ضمنية تفسر كثيراً من ألوان السلوك العنيفة عن التفسير واللاعقلانية في الظاهر ، وهكذا ففكرة الشعور بالذنب راسخة عند الغربيين وتشكل أساساً أساساً رؤيتهم للعالم والإنسان بحيث باتت أحد المبررات الضمنية الأشد قوة التي تبرر المسبقات والتصرفات حيال « الآخر » المذنب هو بطبيعة الحال « الآخر » ، وفي قضية الحال ، الإسلام ، المسلمون والدول الإسلامية .

بإمكاننا ، في هذا الصدد ، الاستشهاد المفيد بأرنست رومان الذي ألقى خطابه الافتتاحي في الكوليج دو فرانس ، حول « نصيب الشعوب السامية في تاريخ الحضارة » في ٢٣ فبراير ١٨٦٢ ، يلاحظ « فانسان مونتاني » بأننا نعيد قراءة هذه السطور اليوم بذهول : « في هذا الوقت المناسب ، الشرط الأساسي تمكين الحضارة الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ما له علاقة بالسامية الحقبة ، تدمير سلطة الإسلام الشيوخراطية . لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمي ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردى ، فإنه سينقرض ، هذه الحرب الدائمة ، الحرب التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤساً أو يرغمه الارهاب على أن يتبدل في الصحراء مكاناً قصياً . الإسلام هو النفي الكامل لأوروبا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار

العلم ، القضاء على المجتمع المدني ، إنه سذاجة الفكر السامي المرعبة ، ضيق الفكر الإنساني ، يغلقة دون كل فكرة دقيقة ، دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلاني ، ليضعه أمام حشو سرمدى :

« الله هو الله . المستقبل إذن لأوروبا ولأوروبا وحدها ، ستفتح أوروبا العالم وتنشر فيه الدين الذي هو الحق ، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القاتل بأن ثمة شيئا ما إلهيا في صلب الإنسانية » يضيف مونتاي بأن « كل تعقيب من شأنه إضعاف هذا النص الذي كان مؤلفه يحيا في ظل الامبراطورية الثانية وسيبشر في السنة التالية كتابه الرنان : حياة المسيح^(١) .

يقول الحبيب الشطى :

لا شك ، أن هذا النص يلخص تلخيصاً باهراً كل الشعور بالذنب الغربي المسقط على الإسلام ، كيش القداء ، الذي تقدم عنه صورة مشوهة تشويها عميقا ، وفوق ذلك يمكننا أن نقول دون اعتراض بأن الغرب ، عندما حاكم الإسلام ، توقف غالبا عن أشكال ديننا الخارجية ، عند بعض المظاهر ، وهكذا فإن الغربي العادى لا يعيش أبداً أبعد من تعدد الزوجات ، من الحجاب ، من عقوبة السرقة وعقوبة الزنا ، وهذا ما يمنعه من فهم جوهر ومبرر المؤسسات الإسلامية .

واجب علماء الشرع المسلمين أن يعرفوا الرأى العام العالمى بهذه الحقائق المجهولة ، جهل هذه الحقائق هو وحده سبب النيل من سمعة الإسلام والمسلمين والحكومات الإسلامية . من الواضح أن هذا النيل من الإسلام وهذه الصورة

(١) نفس المرجع السابق .

التي يلبسه إياها الوعي الغربى ، لم يتحققا عفويا ، فهما ليسا من وحي بعض المستشرقين والمؤرخين وحسب ، بل ومن وحي هواجس الغرب الاستعمارية والاستيعابية التي تحرص أيضاً على أن تخلق عند الشعوب غير الغربية بعض مركبات النقص والتبعية .

وهكذا فكل من يناضل ضد الإسلام يكسب تعاطف الغرب . تحليل الوقائع التاريخية التي قادت المجتمعات غير الغربية إلى طريق التغريب يتطلب وقتاً كبيراً جداً ، لكن بالإمكان مع ذلك الاكتفاء بتوضيح أن الدافع إلى التغريب هو غريزة المحافظة على البقاء ، ذلك أنه لا بد من امتلاك أسلحة حديثة لانقاذ استقلال البلد ، لكن الأسلحة الجديدة تتطلب تعليماً جديداً .

بالتأكيد ، أسهم جهد التغريب في قلب أوضاع المجتمعات غير الغربية فهو يتطلب عادة ذهنية محولة ، تمثل إنسانية جديدة بإمكانها أن تفضى إلى نحو شخصية المجتمعات المعنية ، التقنية الغربية هي في الواقع منتج فكر وفلسفة حياة غربيين محدداً ، وهكذا نطرح مشكلة الإنسانية الغربية في مواجهة العالم غير الغربى التي هي بصدده غزوه^(١) .

لكن من اللائق جعل الإنسانية الغربية غير راغبة في تدمير الحضارات غير الغربية ، وخاصة الإسلامية ، بل في لقائها لتبلغ معا إلى مصاف نزعة إنسانية كونية ، لأن الإسلام ليس في الواقع ديناً فقط ، بل هو أيضاً نمط حياة حضارة .. ثقافة ، إذا تبينا أحد أفضل تعارف الثقافة ، الذى أعطاه تبلور الذى عرف الثقافة كـ « كل مركب : الفن ، الذى يشمل المعارف ، المعتقدات القوانين ، الأعراف وجميع التصرفات والعادات الأخرى التى اكتسبها الإنسان باعتباره عضواً فى المجتمع » .

(١) نفس المرجع السابق .

مفكرو عصر النهضة وتحرير معرفة الشرق من رؤية الاستشراق الاستعماري :

في نهاية القرن الثامن عشر وفي فرنسا ظهر الاستشراق كعلم متكامل قائم على دراسة آثار الحضارة الشرقية المادية والروحية بل يشمل علم الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والسياسة والآداب والأديان والفلسفة .. الخ ، وكان هذا إيذاناً بظهور علم الاستشراق الذي ظهر معه مفهوم « ثقافة الشرق » في مقابل مفهوم « ثقافة الغرب » ثم ازداد ازدهاراً واتساعاً مع بروز التخصص المعرفي في مدارس الاستشراق الغربي ، انطلاقاً من مبدأ تركيز مصالح الغرب الاستعمارية والتجارية - فبرز مع إحكام سيطرة بريطانيا الاستعمارية على الهند والشرق الأقصى ، وظهر في فرنسا مع العلاقات الثنائية بين الباب العالي العثماني منذ القرن السادس عشر الميلادي .. وفي عام ١٨٤٤ انفتحت أبواب مصر أمام الخبراء الفرنسيين بعد توقيع محمد علي باشا والي مصر واتفاقية التعاون مع فرنسا .. وقبل ذلك كله حملة نابليون ١٧٩٨ التي لعبت الدور الأساسي في توجه الرومانسيين الفرنسيين نحو الموضوع الشرق الإسلامي « كلما تغلغلت المصالح الاستعمارية في الشرق ازدهر الاستشراق » وبينما كان الاستعمار الأوروبي يبحث عن منافذ الاستغلال في الشرق ، كان المجتمع الغربي ولاسيما في فرنسا قد وقع في حالة من التخبط العشوائي والعجز عن إنتاج قيم روحية وثقافية جديدة تنسجم مع النظام الرأسمالي الجديد الذي أعقب النظام الإقطاعي الذي ساق أوروبا إلى حرب صليبية .. وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى حالة التخبط :

فشل الثورة الفرنسية في تحقيق المثل والمبادئ والقيم الأخلاقية التي نادى بها فلاسفة عصر التنوير مثل مونتسكيو ، جان جاك روسو .. فولتير :

سقوط الإقطاع وتحقيق مبدأ سيادة الفرد والمجتمع :

تحرير الفكر من سيطرة الكنيسة

أدى هذا الواقع الجديد إلى تطور مفاجئ أربك الإنسان والمجتمع ، وكان ذلك التطور ، وملاحقته وفهمه عسيراً أدى إلى نوع من التخبط الفكرى والروحى أو ما عرف بأزمة الروح الذى أعيد معه طرح المسألة الدينية من جديد على مستوى الدراسة والبحث .. وعلى أثرها لجأ أعلام الفكر الأوربي إلى اللجوء إلى الحضارات القديمة عليهم يجدون فى هذه الحضارات ما يقبل عثرة حضارة الغرب الناشئة مثل : هرور شبلنج ، جوته ، شاتو بريان ... الخ ، وكانت الحضارات الشرقية المرشحة أمامهم من حيث كونها تشكل تاريخ نفوذهم ومصالحهم وامتيازاتهم هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، شكل الشرق لديهم عامل جذب لأن هذا الجزء من العالم لم تكن قد دخلته التغيرات المادية الجشعة ، فلقد حافظ الشرق الإسلامى على طابعه التقليدى منذ القرون الوسطى وسيادة الإسلام بوصفه نظاماً لها وفكراً دينياً وحياتياً .. فهو مهبط الوحى ومهد الرسالات وموطن الشاعرية الصوفية ، والحياة الرعوية الحرة المثيرة للحرية وسعة الخيال .

من هنا أحدثت حالة التخبط الفكرى الأوربي ازدياد التطلع إلى الشرق ، وظهرت مرحلة انتقالية بين : استشراق نظرى تخيل قائم على « منظومة الأفكار الدينية والغيبية » وبين الاستشراق الاستعماري - الإخصاعى - ضد الشرق ... الذى بدأ مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أى مع دخول الاستعمار إلى الشرق الإسلامى فجاء استشراقهم مبنياً على جدلية : الثابت والمتحول ، والمتوسط والحديث ، والموضوعى والذائق ، والكللى والجزئى .

ذلك ما كان من الاستشراق الاستعماري فلقد ساهم في ترويض الشرق
تقبل الاستعمار وساهم في تشويه وتشويه الإسلام والرسول .

« أما مفكرو الغرب الذين رفضوا الواقع الأوربي المضطرب كانت لهم
مواقف يحسبها التاريخ لهم فبعضهم أيد مبدأ حرية الشعوب ، والعدالة
الاجتماعية كبايرون وشيل وجوته ، وجيريكو ، وديلاكروا ، وبوشكين
وفكتور هيجو .. وبعضهم أظهر الدعم للسياسة الاستعمارية مثل - شاتو
بريان ، ولامادتين ، وفرنيه » .

« وهناك من زار الشرق بصفة رسمية أو برحلة دبلوماسية كديلاكروا -
غير أنه لم يؤيد السياسة الاستعمارية للشرق ، بل جاءت لوحاته ومقالاته
النقدية حول الشرق مفعمة بالإعجاب والاحترام للمسلمات الأخلاقية ،
والجمالية الإسلامية والعربية التعبيرى أو الإيحائي » .

لهذا بقي استشراق النهضة سطحيًا ، شكليًا ، وتقنيًا بحثًا ، وهو نتيجة
لطبيعة ولحظ-علاقة أوروبا المسيحية بالشرق الإسلامي آنذاك .

فأوروبا نفسها كانت عاجزة عن محاربة الفكر الإسلامي (الجمالي
والديني) وملاقاته على صعيد المضمون ، لسبب هام وأساسي يكمن في طبيعة
البنية النفسية والأيدولوجية الأوربية المشحونة بالعداء للإسلام وغير المهياة
فكرياً وعلمياً ونفسياً لاستيعاب الشرق الإسلامي بشكل موضوعي
وحياى .

فتمت محاكاة الموتيف ونسخه (شكلا) لينطق^(١) .

(١) الاستشراق في الفن الرومانسى - د. زينات بيطار .

استشراق الاستعمار ومسيرة الصراع مع الإسلام:

الاستشراق ، كمذهب علمي ، أوجده نابليون . نعرف كل ما قام به نابليون خلال حملة مصر وبعدها . فقد أبدى تأخياً مع المسلمين ، بل لقد زعم أنه هو نفسه اعتنق الإسلام ، لاشك أن رغبته في تحسين التفاهم بين المسلمين والأوروبيين كانت صادقة بيد أنه لم يكن خالياً كلياً من الغرض . حلم نابليون ، أول الأمر على الأقل ، بكسب صداقة المسلمين ، لكي يواصل ، بفضل هذه الصداقة ، معركته ضد بريطانيا العظمى .

يبدو أن هذه العاطفة المزدوجة ، هذا الخليط من التعاطف النبيل والمصلحة السياسية الخفية ، قد طبع ، منذ البدء الاستشراق الذي تميز كفرع علمي مستقل منذ نهاية القرن التاسع عشر^(١) .

ومع ازدياد أطماع الغرب طرأت تغيرات على مسرح الأحداث حتمت ضرورة دراسة الشرق بصورة أعمق ، والوقوف على جميع نواحيه الفكرية والسياسية والثقافية والدينية وعوائده ونظمه .

وكان الباعث على ذلك هو ما عرف باسم « المسألة الشرقية » أو توزيع تركة « الرجل المريض » والذي مازال مريضاً ، وقد كانت هذه أهم القضايا الحيوية أمام السياسة الأوروبية في ذلك الوقت حتى الآن ، وما بعد الآن ، التي تم على أساسها توزيع تركة الرجل المريض وإعادة تشكيل جغرافية العالم العربي بل والعالم الإسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ للاستعمار ، وإسقاط الخلافة

(١) الإسلام اليوم - مارسيل بولزار ص ٣٥ .

العثمانية ، وإعلان الوصاية عليها وعلى العالم الإسلامى . لذلك حفزت تلك القضية أوروبا إلى دراسة الشرق بصورة أعمق وفق ذلك المخطط الاستعماري المرسوم .

وعلى هذا تشكلت أهم أكاديمية للدراسات الشرقية عرفت باسم « الأكاديمية الاستشراق » واتخذت دراسة الشرق : تاريخا ، وجغرافية ، وإنسانا ، ومصادر طبيعية ، ودينا ، وحضارة وثقافة وفكرا وعوائد ، ونظما ، وأعرافا .. الخ .. طابعا رسميا معترفا به من قبل أوروبا ، ومن تلك القضايا تكون علم الاستشراق ليعمل وفق مخطط استعماري مدروس .

من هنا نستطيع القول بأن الخلفية التاريخية للاستشراق هي التي حددت مفهومه وأهدافه ونشأته فهو مصطلح يشير إلى الدراسات الغربية للشرق بأنواعه الثلاثة : الأقصى والأوسط والأدلى ، من حيث شعوبه ودياناته إلخ ، رغبة في اكتشافه لتطويعه لسياسة الغرب وخدمة لأهداف الاستعمار ، ومن قبل خفيف الملاحظة نحب ان نشير إلى أن هناك ما يسمى « بالاستعراب » ونعني به دراسة التراث العربى الإسلامى من قبل علماء الشرق السوفيتى ، فهؤلاء ليسو مستشرقين من حيث صحة إطلاق الوصف عليهم لأنهم ينتمون إلى الشرق ، لذلك أطلقنا وصف « الاستعراب » عليهم فهم مستعربون لتخصصهم في دراسة تراث الشرق العربى الإسلامى وأيضا لخدمة نفس الأهداف الاستشراقية ..

فأوروبا المتحدة وريثة الامبراطورية البيزنطية التى عصفت الاسلام بها أيضا فهي حقد دفين يقطر مرارة على الاسلام والمسلمين ، فوحد التاريخ بينهما ، وكذلك وحدت الأهداف بينهما في اقتسام نفوذهما على العالم الإسلامى ثم بتحقيق مطلب الوصاية عليه .

من هنا نستطيع أن نربط بين جماعة الاستشراق وجماعة الاستعراب
بوحدة الدوافع والأهداف .. من أجل ذلك أطلقنا عليهم مصطلح الاستشراق
من قبيل التغليب إذ لا فرق بينهما .

لقد صنع الاستشراق — وفق أساليبه — صورة للشرق يغلب عليها
الطابع الخيالي « اليوتبي » صورة هي اقرب ما تكون إلى الخيال منها إلى
الواقع ، تحوى عناصر الاثارة المتناقضة من متعة الجنس والحريم والغلمان إلى
حياة مفعمة بالروحانية : مآذن ومساجد ، ذلك ما استطاع الاستشراق أن
يصور الشرق به ويطبعه في ذهن الغرب العقلاني . وظلت هذه الشائبة
المتناقضة التى يتميز بها الشرق قائمة في ذهن الغرب لقرون طويلة .

ظهور الجمعيات الاستشراقية :

إن الازدهار الحقيقى للاستشراق والدراسات الشرقية فى القطاعين
الرئيسيين ، وهما : العالم العربى ، والشرق الأقصى .. يعود تاريخه بالدرجة
الأولى إلى عصر التمرکز الاستعماري ، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوربية
على القارات « المنسية » فى أواسط القرن التاسع عشر ، ثم فى تلكه الأخير ،
ولكن سبقته مرحلة ظهور الجمعيات التاريخية ، وهى التى ازدهرت فيها
الجمعيات الاستشراقية مثل :

« جمعية بانافيا ١٧٨١ .

« الجمعية الملكية الآسيوية — لندن ١٨٣٤ .

« الجمعية الآسيوية — باريس ١٨٢٢ .

الجمعية الأمريكية الشرقية ١٨٤٢^(١)

مؤتمرات المستشرقين :

• مؤتمر باريس ١٨٧٣

من ١٩١٤ — ١٩١٨ انعقد ستة عشر مؤتمرا .

• وفي مؤتمر مجمع فيينا ١٩٤٥ .

• مؤتمر اللغات الشرقية الذى انعقد فى باريس حتى حرب

١٩٣٩ — ١٩٤٥^(٢) .

من خلال تلك المؤتمرات وتلك الجمعيات تكونت جماعات
المستشرقين .

تقدم الغرب العلمى لا يغير معارفه عن الشرق :

يقول جرونيياوم^(٣) .

والغرب منذ أيام « هيرودت » — مؤرخ يونانى قديم — يسرح فى
أوهامه ويمرح بخياله فى الشرق وأعاجيبه . نعم إنه كلما تقدمت المعلومات

(٥) ولقد تكفل كتاب (المستشرقون) بتقصى المؤتمرات والجمعيات والأكاديميات تاريخها
ونشأته ، لذلك اكتفينا بالإشارة .

(١) المستشرقون — نجيب العفيفى ج١ — دار المعارف .

(٢) نفس المرجع السابق ج١ .

(٣) حضارة الإسلام : ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد .

الجغرافية اتسعت السعة المعروفة وتباعد القطر الحافل بالأعاجيب ، إلا أن الارتياح العلمي كان التفوق والابهام بحيث أبقى تلك الأحلام الأثرية وراء غلالة من الجهالة .

وبعد ترجمة جالاند « ألف ليلة وليلة »^(١) ١٧٠٤ — ١٧٠٨ أوجدت تيارا جارفا في الفن والأدب والموسيقى والتصوير عرفت باسم « غرايب الشرق وبدائمه » وتركت صورة الشرق في الغرب في تلك البدايات على تلك العصور الخيالية لألف ليلة وليلة . وذلك هو عالم مزيج من الرومانسية والخيال ، وهكذا صُوِّر الشرق على أنه عالم الاسلام من تلك الصور الخيالية التي استقاها الغرب من خيال « ألف ليلة وليلة » .

وهكذا كانت صور الشرق مزيجا من الفخامة والعنف والانطلاق المثير : من جانب عالم من المآذن والنقوش والفتن في أجنحة الحرم ، ومن جانب آخر عالم من الرجال الغلاظ من سلاطين وأغوات وسيافين وحراس ، حيث تقطع الرؤوس وتندق الأعناق . وهذه التصاوير ترضى كما لاحظ الشاعر الألماني « هانريش همانية » الغرائز الحسية المكبوتة ، كما أن النزعات ترضى المواطن الأوربي البورجوازي الذي يعاني من الكبت والرتابة والملل .

يقول فرنو^(٢) : وهناك من يتخيل الشرق في بعض الأحيان بلادا أسطورية تغفو منتظرة عصا التقدم السحرية ، لتستيقظ من سباتها ، وهذه

(١) مجلة فكر وفن - عدد ٤٠ سنة ١٩٨٤ بحث الغرب في مرآة الشرق (أرد موته هيلر تصدر في ألمانيا) .

(٢) يقظة العالم الإسلامي ف.و. فرنو - ترجمة بيج شعبان .

الصورة ليست عديدة المعنى ، ولكنها مثقلة بكثير من الأوهام حول تقدم التقنية ، وضرب مثلا بمصر في تقدم التقنية .

ثم نشأت الحاجة الى معرفة الشرق بصورة أعمق ، أولا في القرن التاسع عشر ، كان الباعث على ذلك هو ما عرف باسم « المسألة الشرقية » التي شكلت إحدى القضايا الحيوية للسياسة الأوربية . وكان لابد - إذن - من الاشتغال بالشرق واكتشافه بصورة أعمق وفق مخطط استعماري .

وحين كتب تاريخ الشرق أيضا بواسطة الأوربيين وفي عروضهم للشرق وتراثه بدأ عالم الاسلام ككتلة صامتة سلبية . وكموضوع يشغل الأوربيين فحسب ، وفي المقابل لم ينشأ عالم مماثل عن الغرب في الشرق ، لم ينشأ علم الاستغراب .. فأوروبا والغرب حتى نهاية العصر الحديث كانتا كما مهملا عند أهل الشرق ، هما جزآن غريبان عن « دار الاسلام » ولم يتم اكتشاف أوروبا لدى العالم الاسلامي إلا تحت ضغط التهديد الاستعماري للشرق ، وبعد تدخل أوروبا المباشر كحضارة غازية في مجال أفريقيا ومصر في القرن الماضي . ومن الشعور المتزايد بفوقية الغرب التي فرضها على الشرق اتخذ منها ليوكد فوقيته ودونية الشرق ، وذلك من خلال إبراز خصائص الشرق الذاتية المتهمة لديه ، وتلك كانت محوره في اتهامه . بينما من المفروض أنه حين تتعرف الأمم والشعوب على نفسها من خلال التاريخ ومن خلال الدراسات المقارنة للحضارات وخصائص الشعوب المغايرة ، بمعنى أننا في حين نقول : إن الصورة المغايرة هي التي تثير فيك الوعي بالذاتية والخصوصية ، على اعتبار أن الشخصية الذاتية تكون عادة من خلال المغايرة ، بهذا المعنى ووفق هذا التصور لم يكن الشرق ذاته هو الذي أثار اهتمام أوروبا منذ القرن التاسع عشر ، وإنما من أجل إثبات المغايرة وتعميق نظرية العرق التي تعنى تفضيل الشعوب الأوربية على الشعوب

السامية ، ومن خلال التعرف على أوجه المغايرة تَكُونُ مفهومًا الشرق والغرب كمفهومين متضادين أو كطريقتين متغايرتين .

من هنا كان اهتمام الغرب بالشرق لتعميق فوقيته وإقناع الشرق بدونيته . وعلى أساس منظور نظرية العرق التي تبنت « دونية الشرق » كانت صورة الشرق الخرافية أو « الميثولوجية » في مقابل الوجه الآخر للعقلانية الغربية التي بدأت من القرن الثامن عشر في خلق واقع اجتماعي بعينه ، وفي تطور معايير فلسفية وصور حضارية تتفق مع الدينامية السائدة في الاقتصاد والتكنولوجيا الغربية ، فمن خلال التصوير « الرومانسي » أو « الخبيث » للشرق صور الغرب نفسه كعالم عقلاني حصيف يرفض الأهواء ويعالى بطبيعة هذا الموقف من الكبت .

حين تتأمل قصة الحضارة الإسلامية من خلال المراجع العربية والإسلامية تهتز سريعا صورة العالم كما رآها الغرب .

فمن مكونات هذه الصورة على سبيل المثال أن « كارل مارتل »^(١) قد أوقع الهزيمة بالمسلمين عام ٧٣٢م عند مدن تورز أو بوتييه وأنقذ الغرب من الدمار . ولكن حين نقرأ للمؤرخين العرب الذين سجلوا جميع المعارك بدقة وتفصيل لا يسعنا إلا أن ندرج هذا « الحدث التاريخي » تحت باب الاختلاق والخيال ، فليس من مصدر ما يورد اسم « تورز » أو « بوتييسه » « وبتكراسم » « و كارل هارمر » أو « كارل المطرقة » كما يقول عنه الطبرى

(١) قارن تعليقات وات في كتابه : فضل الإسلام على الحضارة ، وقارن ما ذكره جرونيام في كتابه حضارة الإسلام ، والخلل السندية للأمير شبيب أرسلان ، وحاضر العالم الإسلامي - لوثروب ستوارد - ترجمة عجاج نويض .

وابن القوطية .. فلا يذكرون شيئا عن هذه المعركة . والأرجح أن مثل هذه الوقائع لم تكن بذات بال . فقد كانت مثال هذه الهجمات أو الغارات من الوقائع الجارية المألوفة .

لم يكن هناك إذن خطة للزحف على الغرب عبر الطريق الواقع بين تورز وبوتيه ، أما بما أعطى هذه الواقعة هذا الثقل فهو شئ آخر هو تقييم المؤرخين الغربيين الانفعالي أو العاطفي .

وساعد على ذلك أن الوقت الذي نهضت فيه أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر أيضا بفضل ذلك التراث العلمى الذى خلفه العرب ، كانت دولة الاسلام فى مرحلة حاسمة من مراحل التراجع والانسحاب ، كان التغير فى موازين القوى قد بدأ بالحروب الصليبية ، واستمر حتى هزيمة الأتراك على أبواب « فيينا » فى هذه الحقبة بدأت قرون السكون فى ظل الدولة العثمانية ، لم يعرف عالم الشرق فى القرون التالية البحث الحر والاجتهاد والابداع ، والبحث عن المعارف الجديدة ، بل تحول التراث المعرفى السابق إلى مجموع من الحقائق الأبدية الجامدة ، أغلقت ميادين البحث الحر بإغلاق أبواب الاجتهاد فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصبح العلم المتداول هو علم الأوائى ، وأما عن العالم الاسلامى فإنه فى خلال هذه الفترة نشأت حركات تجديدية حيوية . وحين نشأ الاهتمام المعرفى بالعالم الاسلامى ونشأ فى إطاره الاستشراق كان الشرق ذاته ، يغط فى نوم ، وعلى الرغم من الاحتكاك المتزايد بالغرب لم ينشأ اهتمام ما بمؤلفات الغرب وبتطوره العلمى والفكرى . فى ذلك الوقت كان العديد من المؤلفات العربية والفارسية والتركية العلمية والأدبية فى ترجمة اللغات الأوروبية ، وفى المقابل لا تجد كتابا واحدا ترجم إلى أية لغة من اللغات الشرقية .

وعبر الحملة الفرنسية حدث شئ آخر ، دخلت الشرق العلمانية الأوروبية وأفكار الثورة الفرنسية التى غزت أنحاء القارة الأوروبية . ولعل هذا

هو الجديد الذى واجه الحضارة الاسلامية فى صورتها المتأخرة التى بدت للمثقفين الجدد فى الشرق كسر نبوغ الغرب وتفوقه ، بل اعتبرها الكثيرون الطريق الوحيد للتغلب على ميراث عصور الحمول المتعاقبة .

علم دراسة الاسلام ، كمذهب علمى أنشأه نابليون بوناپرت وذلك أثناء حملته على مصر رغبة فى تحسين التفاهم بين المسلمين والأوربيين وذلك خدمة لمصالحه ومصالح فرنسا فى الشرق . كان نابليون يحلم بالصدقة مع المسلمين لكى يتمكن من متابعة معركته بتزويد من تحالف القلوب ضد بريطانيا العظمى .. وهكذا اصطبغ علم الاستشراق منذ بدايته كعلم مستقل فى نهاية القرن التاسع عشر بالشعور المزدوج وهو مزيج من التعاطف الظاهر لتحقيق المصلحة السياسية .

نشأت عن هذا التيار الفكرى ، وعن هذه الرؤية للاستشراق المؤلفات الرئيسية لأهم المدارس الاستشراقية فى الغرب (فرنسا ، بريطانيا ، ألمانيا ، هولندا ، أسبانيا ، ايطاليا ، روسيا ، الولايات المتحدة^(١)) وكانت مساهمتها متعددة وخصبة ويميز خبير المكتبات اللبنانى يوسف أسعد داغر بين ثمانية عناصر إيجابية فى الدراسات العربية الاسلامية : دراسات الحضارات القديمة ، تجميع المخطوطات العربية فى المكتبات الأوربية ، إنشاء لوائح بالمخطوطات ، نشر مؤلفات عديدة مهمة ، إلقاء درس منهجى — بهذه الطريقة — على العلماء الشرقيين ، تنظيم مؤتمرات للاستشراق ، كتابة بعض الدراسات — التى كثيراً ما تكون ناقصة ومغلوبة من الناحية اللغوية ، لكنها متأسكة

(١) راجع : الفكر العربى عدد ٣١ سنة ١٩٨٣ السنة الخامسة عدد خاص عن الاستشراق — التاريخ والمنهج والصورة — ، وعلى الأخص بحث الاستشراق فى أزمة ، دكتور أنور عبدالمملك — ترجمة : د. حسين منيسى وكان قد نشر باللغة الفرنسية فى مجلة ديوجيس عدد ١٩٦٣ .

ودقيقة من حيث المنهج - وأخيراً - فقد ساهمت هذه الحركة في تبيه الوعي القومى فى مختلف بلدان الشرق ، وفى تنشيط حركة النهضة العلمية واليقظة الفكرية .

وهذا العمل نفسه كان مشعباً إلى حد بعيد جداً بالمسلمات وبالعوادات المنهجية وبالمفاهيم التاريخية - الفلسفية التى كان لها أن تحيط ، فى كثير من الأحيان ، نتائج الأعمال الدؤوبة وقيمتها العلمية وأن تؤول ، من الناحية الموضوعية ، بعدد كبير من العلماء المستشرقين الأقحاح إلى المواقع الفلسفية - السياسية التى يحتلها الفريق الآخر من العاملين .

كان هذا الفريق مؤلفاً من خليط من الجامعيين ورجال الأعمال والعسكريين والمؤلفين الاستعماريين والمبشرين والصحفيين والمغامرين ، الذين كان هدفهم يقتصر على الحقل المزمع احتلاله ، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انقيادها للقوى الأوربية على نحو أفضل .

يقول أبو عبد الملك

« إن الشرق والمستشرقين » موضوع « للدراسة ، موسوم بالغيرية - شأنه شأن كل ما هو آخر ، سواء كان « ذاتاً » ، أم « موضوعاً » لكنه موسوم بغيرية تكوينية ، ذو طابع جوهرى كما سترى على الفور - موضوع - الدراسة هذا يوصف ، كما يليق به ، بأنه سلبى ، لا يساهم فى الأمور ، ممهور بذاتية « تاريخية » ، فضلاً عن أنه فوق كل ذلك معدوم الاستقلال ، معدوم السيادة تجاه نفسه : الشرق أو الشرق الوحيد ، أو « الذات » التى يمكن التسليم بها ، فى النهاية القصوى ، هو الكائن المستلب ، المؤلفين ، أى الذى إذا قيس بالنسبة إلى ذاته كان أمراً آخر غير هذه الذات ، إنه الكائن المطروح والمفهوم المحدد - والمفعول به - من قبل الغير .

يتبنى تصوراً جوهرياً لبلدان الشرق المدروس وأمه وشعوبه ، وهو شعور
بتجلى عبر غمطية اثنية (عرقية) موصوفة سابقاً .

ثم يقول أنور عبد الملك :

يوصف بأنه « تاريخي » ، لأنه يعود إلى التاريخ السحيق ، وبأنه
لاتاريخي ، لأنه يجمد الكائن ... « موضوع الدراسة » ... في خصوصيته الثابتة
التي لا تخضع للتطور والتحول ، عوضاً عن أن يجعل منه - كسائر الكائنات
الأخرى ، من دول وأمم وشعوب وثقافات - نتاجاً أو حصيلة لمنحى القوى
الفاعلة في مجرى التطور التاريخي .

فيفضى الأمر هكذا إلى غمطية مبنية على خصوصية فعلية ، لكنها منزوعة من
التاريخ ، ... وبالتالي ، فهي تعتبر بمثابة الكائن المعطى الذى لا يمس ولا يقرب -
تجعل من « الموضوع » المدروس كائناً آخر تكون الذات الدارسة بالنسبة إليه
ذاتاً مفارقة متعالية : إذ أن الانسان - « الانسان السوى » طبعاً - هو
الانسان الأوربي الذى عاش في العصر التاريخي ، أى منذ العصور اليونانية
القديمة . وهكذا يرى المرء إلى أى حد كان الارتباط وثيقاً - من القرن الثامن
عشر حتى العشرين - بين سلطوية الأقليات المالكة التي فضحها « ماركس »
و« إنجلز » والخورية البشرية التي نسفها « فرويد » وبين الخورية الأوربية ، في
ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية ولاسيما تلك التي تتصل اتصالاً مباشراً
بالشعوب غير الأوربية^(١) .

ويصدرون في إثبات فوقيتهم من منبج حدوده لأنفسهم ظاهره الرحمة
وباطنه العذاب حين يبدأون بدراسة الماضى الثقافى للأمم الشرقية وهو في
نظرهم : إن ماضى الأمم والثقافات الشرقية يشكل ، بالطبع ، حقل

(١) يراجع نفس المرجع السابق ونفس دراسة أنور عبد الملك .

الدراسات الممتاز : « فعندما يصار إلى التسليم ضمناً بأن أزهى الفترات التي عرفتها بلدان الشرق تنتمي إلى الماضي » يصار إلى التسليم من هنا بالذات « إن انحطاطها أمر لا مفر منه » .

ويدرس هذا الماضي نفسه ، من حيث أوجهه الثقافية - ولا سيما اللغة والدين - المعزولة - في نظرهم - عن التطور الاجتماعي^(١) .

وبعد أن يدرس التاريخ بوصفه « بنية » ، يعكس في أفضل الحالات على الحاضر القريب . فيبدو هذا الحاضر بمثابة امتداد للماضي الذي كان متألقاً وانطفأ . وهكذا بدلاً من أن يكون التاريخ تأريخاً يصبح أمراً غريباً مشيراً للاستهجان .

أما العمل العلمي الذي قام به علماء مختلف البلدان الشرقية ، فلا ينسب حوله بينت شقة ، بل يتجاهل في معظم الأحيان تجاهلاً تاماً إلا فيما ندر من الأعمال التي تسير باتجاه استشراق المراكز اللغوية . أما الباقي فيوصف بأنه لا قيمة له ويغمط حقه ، بينما يصبح التأخر المعزول للشروط التاريخية ، ولا سيما الاستعمار ، خاصة من الخصائص المميزة والمكرنة للذهنيات الشرقية .

والمصادر المستعملة من قبل المستشرقين الغربيين التقليديين : تقارير الإدارات الاستعمارية ، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية ، إحصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات ، أخبار الرحلات .. إلخ - فهي مصبوغة صبغاً شديداً بكل منوعات العرقية والعنصرية . ويتصف أكثرها اعتدالاً بالغرابة وبالمحى الأبوى . هكذا يدرك المرء أن هذه المصادر الثانوية ، رغم تقديمها لعدد من المعطيات الأخرى ، لا تصلح بأي حال من الأحوال لدعم عمل يتوخى البحث العلمي .

(١) يراجع : فقه اللغة العربية - د. لويس عوض .

هذه هي الخصائص الرئيسية للاستشراق التقليدي ، الذي مثل مجمل المنحى الاستشراقي حتى نهاية حرب « ١٩٣٩ - ١٩٤٥ » ، والذي مازال يحتل مركزا مرموقا حتى أيامنا هذه .

يرى إدوارد سعيد^(١) : أنه أداة مذهبية مجتمع متقدم يساعد على الحكم على مجتمع أقل تقدما من الناحية المادية وعلى معايرته . وهو مزين بهالة المعرفة والتبحر . وهو بمركزه يستطيع أن يعتمد على إعطاء صورة مشوهة عن الشرق . والشرق بهذا المعنى هو الرمز المضاد للغربى العقلالى والتقدمى ... وإن الشرق فى نظرهم : ليس حقيقة حضارية وإنما مساحة نشأت فى فكر العلماء ذوى الالهامات السيئة . لذلك لم يساهم نتاج المستشرقين فى تحسين تفهم الاسلام من جانب أو حتى فى إعادة تصويب الصورة التى انطبعت فى الرأى العام الغربى .

تتسم أبحاث الاستشراق فى هذه المرحلة عن الشرقيين الأدنى والأوسط بالتناقض ، فمن ناحية تدفع الأهمية السياسية العالمية للمنطقة إلى التركيز على مشاكلها من وجهة نظر الاستعمار ، ومن الناحية الأخرى يزيد البعد المعرفى والوجدانى والخلفية التاريخية لدى الاستشراق عن المنطقة التى تزيد من صعوبة تناول تلك المشاكل .

واقصر الاهتمام بقضايا الشرق على بعض فروع العلم المتخصصة فى المجالات التاريخية والثقافية واللغوية التقليدية ، هذا مع التزام هذه العلوم بوجهة النظر الأوربية ومفاهيمها . وظل إدماج المنطقة فى برامج الأبحاث العامة للعلوم الاجتماعية هامشيا وغير مَرُضو .

(١) يراجع الاستشراق - ترجمة كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت .

وفي الوقت الذي تحتل مفاهيم ، التخلف واستراتيجيات التنمية ، في هذه الدراسات ، بؤرة الاهتمام ، فقل ما تعرض للأسباب التي أدت الى طور التنمية الحالي . ومازال الجزء الغالب من الأبحاث متأثرا « بنظريات التحديث » التي ترى ان تغير القيم والمعايير والبنى الموروثة لايم إلا تحت ضغط وتأثير النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الغربية الأكثر تفوقا . وتفغل دراسات التحديث هذه غالبا الأبعاد التاريخية لموضوع البحث ، وإن تضمنت خلفيتها النظرية مقولة أن البنى الدينية هي المسئولة في المقام الأول عن نسق القيم والمعايير ، المختلف ، في العالم الثالث . وتنظم في هذا الاتجاه تلك الأفكار التي تعتمد أساسا على أعمال « ماكس فيبر » ، والتي تحمل الاسلام مسئولية إعادة تطور وتنمية القيم والسلوكيات والبنى التي تبث الفاعلية في الحياة الاقتصادية والتي ترشد الحياة الاقتصادية في النظم الرأسمالية . ويجد هذا التراث العلمي ، الذي يرى في الاسلام سبب الأسباب ترديدا مشوها له في الكتابات السياسية اليوم .

ويغفل هؤلاء أن السيطرة الامبريالية والتفوق الاستعماري قد لعبا دورا جوهريا في التطور المتدني لتلك المنطقة .

يعلق بيتر بافلكا بقوله^(١) : لن يجد دارس العلوم السياسية الذي يهتم بالبعد التاريخي ضلته في هذه الدراسات . وتكفي بعض القراءات السريعة في تاريخ الشرق لطرح عدد من القضايا التي لم تعالج حتى الآن . كيف يتفق على سبيل المثال الادعاء بأن الاسلام يعرقل التطور الاقتصادي والاجتماعي مع سيطرة النظم العربية في القرون الوسطى على التجارة الدولية ؟ كيف حدث أن مصر العربية في القرن التاسع عشر كانت ، إلى جانب اليابان ، البلد النامي

(١) يراجع : بحث لماذا تخلف الشرق ؟ الشروط التاريخية للركود والتطور - بيتر بافلكا - أستاذ العلوم السياسية بجامعة نوبنجن - ألمانيا الغربية ، نشر في عدد ٤٠ (فكر وفن) - ألمانيا الغربية .

الوحيد ، الذى حاول تشييد قاعدة صناعية مستقلة ؟ هل من الصحيح القول : إن الرأسمالية والامبريالية والاستعمار هي وحدها المسئولة عن المستوى المتدنى الحالى لتطور الشرقيين الأدنى والأوسط ؟ هل هناك أسباب اقليمية مميزة لتخلف المنطقة أكثر أهمية من التفسيرات الدينية ؟ تختلف التفسيرات اختلافا كبيرا حول العوامل التى أدت إلى انهيار النظام العربى الاسلامى . يرى التفسير السياسى فى تفتت السلطة ولا مركزيتها ، وفساد الصفوة السياسية ، ونضوب الموارد الاقتصادية ، الأسباب الرئيسية للأزمة التى انتهت بالعجز عن مواجهة الخصم العثمانى . بعد عقود من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، تمكن الأتراك عام ١٥١٧ من عزو الدولة المملوكية . عانت الدولة العربية تحت الحكم العثمانى فى القرون التالية ، فترة من الانحطاط الاقتصادى والاجتماعى والحضارى ليس لها مثيل . وانتهت الفترة بنهاية القرن الثامن عشر لتصب بعد ذلك فى عملية من التشويه المنظم ، على أيدي القوى الأوروبية .

أولا : إن أعمال الاستشراق الأكاديمى الذىبنى موضوعية الحقيقة التاريخية للإسلام كانت تقدم فى أكثر الأحيان برطانة علمية معينة يصعب على غير المتخصصين استيعابها .

ثانيا : إن غالبية الاستشراق العظمى تنتمى إلى مراكز العلوم الاستعمارية فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا . وكانت الغاية التى يهدف إليها الاستعمار من إنشائه ، هو تفهم العقلية الاسلامية على أحسن وجه لتسهيل إدارة الشعوب الاسلامية فى النطاق الاستعمارى .

ثالثا : يقول أنور عبدالمالك^[١] : إن المستشرقين ابتداء من رينان ، إلى جولدسهيير . إلى فاكرونالد ، إلى دجيب ، وديرنارد لويس ، كانوا

(١) يراجع : الاستشراق فى أزمة - د. أنور عبدالمالك - ترجمة : حسن قيسى - الفكر العربى عدد ٣١ الذى سبق ذكره .

يعتبرون الاسلام « مركبا ثقافيا » يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الاسلامية وخبراتها الاجتماعية ونظمها السياسية إلى أن جاء علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين اهتموا بالاسلام وأتبعوا في دراسته مناهج جديدة تعالج الاسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ووجدوا كم أخطأ المستشرقون .

رابعا : يشهد تاريخ الاستشراق على أنه أسهم في انتاج العداء للعرب وبالتالي أسهم في استباحة عنصرية للوجود العربى كما ساعد - حين استطاع - على استلاب العالم الحضارية والإسلامية سواء بحفظها أم بازديادها^(١) . وهذا ليس انتقادا وإنما بنية تاريخية ، وحقيقة لم تعمل القوى الاستعمارية على إخفائها في ذلك العصر .

كذلك ، ويمكن اتهام الاستشراق بافراز الانطباعات العرقية والامبريالية والمذهبية والحفاظة عليها وفي نفس الوقت مؤاخذته ايضا على رفض تحليل الأمور السياسية الحقيقية والمتعلقة بمشاكل الدول الاسلامية في عصرنا هذا . وفي الواقع ينبع الضعف الأساسى للاستشراق حاليا من تقوقعه في أغلاله القديمة ، ومن هيكلياته المثقلة بالتقاليد الأكاديمية والتخصص المهني الى أبعد حد ممكن . ومما يضاف الى ضعفه هو أن معارفه العلمية الصحيحة عن الاسلام والعرب يتراكم بعضها فوق بعض دون أن يعمل على نشرها . لذلك كان تأثير الاستشراق العلمى على الراى العام الأوربى أقل .

يرى فكتور محاب^(٢) : أن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية يمثلون ظاهرة هامشية في الفكر الأوربى ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تمثل موقفا سياسيا عاما ولا جزئيا ولا تمثل موقفا اجتماعيا أوربيا تجاه العرب .

(١) يراجع : الفكر العربى عدد ٣١ الاستشراق : التاريخ والمنهج والصورة - بحث الاستشراق - مشكلة معرفة أم مشكلة اعتراف بالآخر ٢ د. خليل أحمد خليل .

(٢) يراجع : الاستشراق العربى وهم أم حقيقة - عبدالحق الزمورى - مجلة حوار ، عدد

٩ السنة ٣ .

الفصل الثاني

لماذا يعادى الغربُ الإسلامَ

من أقوال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد
« فالعداء بين الاستعمار والإسلام عداوة تاريخية ،
جغرافية ، نفسية ، وتلك هي أصعب العداوات وأعماها
وأعصاها على التوفيق والسيان » ١١١

(١)، الإسلام والاستعمار . عباس محمود العقاد .

لماذا يعادى الغرب الإسلام ؟

إن من أسباب معاداة الغرب للإسلام هو : أن الشرق يعتبر - باستثناء الإسلام - مجرد امتداد للغرب وتابعا له ومسرحا لسيطرته : وظل هذا الفهم قائما حتى القرن التاسع عشر ، من حيث إن الشرق الإسلامى والعربى هو المنطقة الوحيدة التى كانت تمثل تحديا سافرا لأوروبا ، سواء فى المجالات السياسية أو الثقافية ، بل أيضا فى فترة من الفترات فى المجال الاقتصادى . لذا كان الاستشراق يتميز ، خلال مرحلة طويلة من حياته ، بهذا الموقف العدائى المعادى للإسلام المناوئ للثقافة الإسلامية والعربية . لأن الإسلام هدد أوروبا المسيحية حتى عام « ١٥٧١ » ، وقد أفلح خلال ذلك أن يزج سلطان روما نفسها ويزلزله ، وهو أمر لا يمكن لأى أوربى أن ينساه أو يتناساه وهذا الموقف يثيره الاستشراق دائما فى كتاباته ، فيحرك فى الأعماق كثيرا من الآلام فى نفوس الأوربيين .

ولم يكن ذلك الهدف يغيب عن الحملة الفرنسية . فوضعت الحطة على هذا الأساس ، وكان لها جانبها العسكرى ، وجانبها العلمى والثقافى أيضا ، وكانت مصر تعتبر الحلقة الأولى ضمن سلسلة طويلة لاحتواء الشرق ، فمخضت الحملة من ناحية الاستشراق عن إنشاء المعهد المصرى ، بكل ما فيه من علماء ومفكرين فى مختلف فروع التخصص ، وهم الذين درسوا مصر من مختلف الجوانب وألفوا كتاب « وصف مصر » الشهير الذى يقع فى ثلاثة وعشرين

جزءاً ضخماً ، يهدف كما يذكر ادوارد سعيد ، إلى صنع مصر عن طريق إحياء تراثها القديم ، ونقلها هي ذاتها من حاضرها إلى حاضر أوروبا .

ولقد استفاد نابليون في وضع خطته ، بكتاب « الكونت دوفولني » : « رحلة في مصر وسورية »^(١) الذي ظهر في مجلدين « ١٧٨٧ » ، وقد تعرض « فولني » في الجزء الثاني للإسلام . ولكن كتاباته كما يقول د. شكري النجار عن الإسلام من حيث هو دين ، ومن حيث هو نسق من النظم السياسية كانت تتسم بالتحامل ، فأدى به في نهاية الأمر إلى اعتبار الشرق الأدنى ليس أكثر من مكان يمكن لفرنسا أن تحقق فيه أطماعها الاستعمارية .

قد تعرض « رودى بارت » في كتابه « الدراسات العربية والإسلامية » في الجامعات الألمانية والمستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه ، لهذا السؤال . عرض له في المقدمة مترجمه د. مصطفى ماهر فقال : قد تعرض المؤلف في أجزاء من الكتاب لموضوع هام : هو مدى تقبل أهل الشرق للدراسات المستشرقون . والرأى عنده « بارت » أن دراسات المستشرقين تقابل بالشك والريبة . واستشهد بكتاب صغير للدكتور محمد البهي بعنوان « المبشرون والمستشرقون ومواقفهم من الإسلام » والحقيقة أن الاستشراق ارتبط في بدايته كما يقرر الأستاذ يوهان فوك في كتابه المشار إليه بالحركة الصليبية ، وأن المستشرقين الأول كانوا يعتبرون عملهم نوعاً من الكفاح ضد الإسلام والعروبة . كذلك ارتبط الاستشراق في أوقات بعينها .. كما يشهد على ذلك « رودى » نفسه ، بالاستعمار . ولهذا فلا ينبغي أن يكون من المستغرب أن يكون هناك بين المسلمين والعرب اتجاه يقوم على الارتياب والتشكك في نوايا المستشرقين .

(١) لم الاهتمام بالاستشراق - شكري النجار - مجلة الإنماء العربي ص ٩٧ .

يقول بارت : « أما أعمال المستشرقين في مجال الدراسات الاسلامية ، فهي أعمال لها أهميتها الكبرى ، لكن المسلمين ينظرون إليها نظرة تختلف عن الأعمال التي ينشئها العلماء المسلمون ، فالإسلام بالنسبة للمسلمين ليس علماً فحسب ، ولكنه قبل كل شيء آخر دين^(١) .

كذلك إذا نظرنا الى تاريخ تطور الاستشراق في بداياته الأولى مع الدراسات الاسلامية ، رأينا أنه بدأ بترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب « بيتروس فينير إيبليس » رئيس دير كلوى ١١٤٣ م وكان ذلك على أرض أسبانية ، وعلى الأرض الأسبانية وفي القرن الثاني عشر نشأ أول قاموس عربى لاتينى . وفي القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر أنشأ « ويموندوس لالوس » في جزيرة ميورقة كراسى لتدريس اللغة العربية . يقول بارت : وإن كان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية هو : التبشير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم بطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحى . ويحيل بارت القارئ الى كتاب تخصص في هذه الدراسة وصفه « نورمن دانييل » باسم : « الاسلام والغرب » ١٩٦٠ .

يرى صاحبه : أن موقف الغرب المسيحى في العصر الوسيط من الاسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب^(٢) .

وهذا الموقف البغيض الكاره للاسلام ليس نتيجة ، فله المصادر التي تعينهم على معرفتهم للاسلام ، فلقد عرفوه من مصادره الأولى . وإنما الحقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الاسلام ، وكانوا يتصلون بها على حب كبير ، ولكن كل محاولة

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية منذ تيودور نلدكه - ترجمة مصطفى ماهر .

(٢) الدراسات العربية والإسلامية .. وكتاب الاستشراق د. محمود حمدى رفوف .

لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادى للمسيحية لا يمكن أن يكون فيه خير ، وهكذا كان الناس ، الغرب ، لا يولون تصديقهم لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة الى النبي العربي والى دين الاسلام^(١) .

ويقول د. زقزوق : فقد كان الاسلام ... كما يقول : ساذن - يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة^(٢) .

وفصل مارسيل بوازار^(٣) أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام فيقول : نستطيع القول ، اليوم ، أكثر من أى وقت مضى ، بأن الغرب يمتلك ، حول الإسلام معلومات هائلة من مصادر مختلفة وذات نوعية شديدة التنوع ، لكنه يمتلك ، في الواقع ، معرفة جد محدودة . بدأت التوضيحات والتعليقات تتكاثر منذ عهد قريب جداً . فقد ازدهر الاستشهاد الزائف بالقرآن والسنة في الصحافة اليومية ، لقد شوهت هذه الاستشهادات أو بكل بساطة اخترعت لدرجة أنها لم تعد قادرة على إزعاج المسلمين الذين يعيشون في الغرب ، ولكنها تعطى ، للرأى العام صورة عن الإسلام منحرفة كلياً .

إن تأثير وسائل الإعلام بات معروفاً لدرجة تغنيا عن عناء التذكير بتفاصيله ، الإعلام الذى هو ، في بلدان اقتصاد السوق ، ليس سوى سلعة للتسويق ، اكتسب بالضرورة طابع سلعة تباع أفضل بيع كلما كانت ملتصقة بالأحداث اليومية ، ومثيرة بقدر الإمكان بلبه مرضية . الشائعة ، الفكرة

(١) نص المرجعين السابقين ص ١٠ .

(٢) الاستشراق والخلفية التاريخية للصراع الحضارى ص ٢١ د. محمود حمدى زقزوق .

(٣) الإسلام اليوم ص ١٥ - اليونسكو .

الخاطئة ، أو التفسير المغلوط تنتشر عادة وكالات الأنباء المتخصصة الكبرى وتغور حيثئذ فيما يشبه صندوق رجع الصدى ، لكي تظهر في النهاية ، كحقيقة رسمية أو كواقعة لا يأتينا الباطل أو تكاد ، لدرجة أن تكذيبها لا ينجح أبدا في تصحيحها كليا .

يبد أن بواعث تفهم الإسلام والمسلمين من قبل الغرب أكثر قدما من سوء التفاهم الناجم عن تفسير الأحداث السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة .

وهي أيضا أكثر عمقا وأشد تنوعا ، حتى إذا ظل عدد ما من الأفكار الخاطئة قائما عبر العصور ، مثل فكرة الجهاد ، الذي ترجم مع الأسف في الفرنسية بـ « الحرب المقدسة » وضع المرأة ، قبول الحداثة والتكنولوجيا إلخ .. لكيلا نذكر إلا بعض الأمثلة .

بالطبع لا نريد هنا وضع قائمة جرد بالقوالب التافهة والأفكار الخاطئة . فذلك مضجر ، وفضلا عن ذلك فليس من المجدي أن تبادل التهم طويلا حول الأسباب المشتركة لعدم التفهم . بل إن استطرادا حرا حول صورة الإسلام في الغرب يقدم فائدة أحمل . لن نحلل هنا صورة الغرب في العالم الإسلامي فهذا موضوع آخر ، مهم دون شك ، لكنه يظهر في منظور خاص . لأسباب تاريخية بدا الغرب ، وخاصة خلال القرنين الأخيرين ، في أعين شعوب المستعمرات ، بملاحم المسيطر أكثر مما بدا بملاحم المحاور ، عدوانيا أحيانا وماديا غالبا . بيد أن صورة الغرب في الإسلام هي ، دون شك ، أقل تشوها من صورة الإسلام في الغرب .

تعايشت حضارتنا الإسلام والغرب منذ خمسة عشر قرنا تقريبا . كان المحاربون والتجار ، في الحوار بين هاتين « الأديولوجيتين » بأنبل معاني هذه الكلمة هم السعاة الأول ، ثم تلاهم رجال الدين ثم ، في القرن التاسع عشر

تقريباً ، أولئك الذين سموا بـ « المتخصصين في الإسلام » أو « المستشرقين » .

لقد تغيرت المعطيات اليوم كثيراً . من هؤلاء السعاة الأربعة ، اختفى اثنان : الجندي والكولون (المعمر) . كما اختفى المبشر أيضاً . أما المستشرق فهو بصدد تغيير سيرته ، تغيير نبرته وموقفه .

الاقتحام المفاجيء لظاهرة « الإسلام » في الأحداث السياسية المعاصرة لم يسهل دون ريب ، تفهم الرأي العام الغربي - الذي اكتشف جزء كبير منه الإسلام خريف ١٩٧٣ بمناسبة حرب أكتوبر - للمسلمين .

أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام عديدة ومعقدة . إنها تستند أساساً على دوافع دينية ، تاريخية ، نفسية ، ثقافية ، وثقافية ، ومجدداً الآن ، على اعتبارات سياسية واجتماعية - اقتصادية^(١) .

على الصعيد الديني أولاً ، نظرة المسيحية لن تغير أو لم تغير إلا قليلاً منذ خمسة عشر قرناً . إنها مطابقة للموقف المألوف لكل دين منزل ، مظهرة لشيء من التسامح العقائدي إزاء الأديان السابقة (أنبياء اليهودية في هذه الحالة) لكنها قابلت بالرفض المطلق ديناً لاحقاً : الإسلام . ظهور الإسلام اللاحق تاريخياً شوه حقيقته النهائية ، في نظر النصارى . بدا الإسلام ، منذ البيزنطيين كإنحراف للنصرانية . فقد الصقت بالنبي محمد أوصاف وقحة ، وفي النهاية عبثية ، فقد صور في صورة راهب مرتد أو في أى صورة مشابهة . فقد كان النصارى آنذاك يظنون أن بوسعهم تشويه الإسلام بتشويه رسوله ، محمد ، بمقارنة ساذجة مع المسيحية . وهكذا فالإسلام غدا يدعى بالمحمدية . بالتأكيد لقد تغيرت الأزمان لكن صورة النبي الزائفة على نحو مضحك لم تغير ، رغم أن البحث التاريخي برهن مراراً على أن هذه المزاعم التقليدية كانت خاطئة ،

(١) نفس المرجع السابق .

تحاول السلطات الكنسية من جهتها أيضاً المشاركة في استبعاد القوالب الأكثر سخافة .

يجدر بنا ، في هذا الصدد ، أن نشير إلى أن الكرسي الرسولي ، وخاصة منذ المجمع الفاتيكاني الثاني ، قد اتخذ موقفاً في متنى الشجاعة ، ليحول جذرياً أسس الحوار الإسلامي - المسيحي ، باهتمامه أولاً بالتغير التدريجي لعقيدة إخواننا المسيحيين . وهذا ما يهيئ قبل كل شيء . المهمة هائلة وستكون طويلة . إن كتابة سر الكرسي الرسولي لغير المسيحيين أشارت إلى ما يمكن أن تكون الخطوات الأولى نحو عالم بإمكان كل أحد فيه أن يكون مفهوماً ومحترماً ، عرضت الإسلام عرضاً موضوعياً ، ثم أوصت الكاثوليكين بـ « الاعتراف بمظالم الماضي ، والتحرر من « الأوهام الأكثر شهرة ، حول الإسلام ، التي هي القدريّة ، التساهلية ، الفقهوية ، التعصب ، الجمود ، إلخ سعى أيضاً المجلس المسكوني للكنائس إلى ربط حوار أكثر أخوة مع المسلمين ، حوار ما زال يصطدم بعقبات شتى ، منها غياب المركزية الإدارية في البروتستانتية العالمية^(١) .

على الصعيد الثقافي ، أسباب عدم التفهم تنحصر أساساً في أمرين ، من جهة ، على المستوى المذهبي ، ينجم سوء التفاهم من موقف يمكن تلخيصه على النحو التالي : الأقارب هم أقل الناس تفاهماً ، يجد المسيحي في الإسلام أشياء كثيرة تذكره بدينه وعقائده وأفكاراً متماثلة أو قريبة جداً من عقائده وأفكاره . وهذا ما يبدو له معروفاً جداً لدرجة أنه يمر به ساهياً دون أن يأخذ الوقت الضروري للتوقف لكي يستخير ، مع الاهتمام الكامل الذي يكتسبه المرء غالباً بصدد ما يتخيله معروفاً جداً ، لكنه لا يعرف بما فيه الكفاية لكي يفهمه فهماً أفضل .

(١) الإسلام اليوم - مارسيل بوازار .

قام بعض الاختصاصيين بدراسات علمية وشكلوا تدريجيا ما تواضع الناس على تسميته بالامستشراق . كان الباعث في القرن السادس عشر تبشيريا .

فقد كان لابد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمحاربته محاربة جيدة على مستوى العقيدة . فقد ترجم القرآن إلى اللاتينية وانكب المفسرون المسيحيون على دراسته من أجل نقده . هذا النقاش اللاهوتي ، الذي لم يكن دائما صادرا عن حسن نية ، من كلا الطرفين ، ساهم في أوسع استخبار متبادل ، لكنه لم يساهم في إيجاد تفاهم أفضل . ومن الطريف أن صورة الإسلام ربما غدت الصورة الأكثر إيجابية خلال عصر الأنوار ، بالتأكيد ، لم تختف التفسيرات الخاطئة والقوالب المألوفة فيه ، لكن بعض التعاطف مع الإسلام نما وتطور .

ولذلك في الواقع سيان متداخلان أحيانا ، أحدهما دجيل ، والآخر فلسفي وسياسي . بالنسبة للسبب الأول ، الافتتان الرومانسي بما هو دجيل ، كان يتطابق مع الموضة ، مع ذوق الجمهور المثقف والمفرغ في ذلك العصر ، المنجذب نحو الشرق . ألف ليلة وليلة التي لقيت فورا نجاحا باهرا ، رغم أن فكرها الحقيقي شوته كليا الترجمة الفرنسية . استمر هذا الاهتمام ، الفكري الخالص ، قائما . فقد أقام « لامارتين » في فلسطين . « وأجين سو ثم فلوبيير » ، لكى لا نذكر إلا الأمثلة الأكثر شيوعا ، حلا بها أيضا . وقبلهما أدخل موليير « التركيات » في كتاباته . أما « كورناري » فقد استلهم الأدب الملحمي العربي الإسلامي في أسبانيا عند كتابة أحد أجمل آثاره سيرا على المستوى الميتافيزيقي ، وعرضيا السياسي ، درس « فولتير » بجد كبير الإسلام ، لكن مع الأسف استنادا إلى مصادر ثانوية ومشوهة « عرف جان جاك روسو » المسلمين بواسطة أبيه الذي - قبل أن يستقر في جنيف - كان ساعاتيا في إستبول ، وبواسطة عمه الذي كان قسلا في البصرة . خلافا لفكرة شاعت على نحو زائف .

هل لدى الاستشراق قضايا أخرى غير تشويه الإسلام ؟ تحديد نقاط التشويه للإسلام

يحصّر مونتجومرى قضايا الإسلام التى تشكل لدى الاستشراق قوالب مصبوبة فى أدمغتهم هم وحدهم لا يبرحون عنها ولا يغيرون عنها حولاً ، وهما هم الآن قد أشبعوها شرحاً وتزييفاً وضلالاً . ورغم أن مونتجومرى^(١) حصّرها وقيّمها فإن الاستشراق يصر على استرجاعها .. فهل لديه قضايا أخرى ؟ ذلك ما ننظره فى تلك الدراسة .. وهى كما حصّرها مونتجومرى .

(١) المسلمون والحضارة :

نظرة مونتجومرى وات : يقول مونتجومرى وات ص ٧ بين منهجه :
« إلى لن أنظر إلى المسلمين باعتبارهم دخلاء بين العديد من الدخلاء على القارة الأوربية ، وإنما باعتبارهم ممثلين للحضارة ذات إنجازات على رقعة أرض مجاورة » .

(٢) وات يرفض النظرة الأوربية القديمة إلى الإسلام وحضارته فيقول :

« قد أدرك الناس منذ زمن أن الكتاب المسيحيين فى العصر الوسيط خلقوا صورة للإسلام هى صورة شائنة من وجوه عديدة ، غير أن وجود الباحثين خلال القرن الأخير قد مهد السيل من أجل تكوين صورة أكثر موضوعية له فى عقول الغربيين » .

(١) فضل العرب على الحضارة الأوربية - ترجمة حسين أحمد أمين .

ثم يقول : « ومع ذلك فإننا معشر الأوربيين نأبى في عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضارى علينا ، ونميل أحياناً إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامى فى تراثنا ، بل ونتجاهل هذا التأثير تجاهلاً تاماً . والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين ، أن نعترف اعترافاً كاملاً بهذا الفضل . أما إنكار معاملة فلا يدل إلا على كبرياء زائف » .

(٣) روح الشجاعة البدوية :

كان من عادة قبائل البدو العربية لقرون عدة سبقت الإسلام شن غارات على القبائل الأخرى ، وكان الغرض المألوف لهذه الغارات أو الغزوات سلب إبل الأعداء أو مواشيهم فكان الحافز مادياً .

أما بالنسبة للمسلمين أنفسهم فقد كان الغزو استمراراً طبيعياً لنشاط عرفوه منذ حياة الرسول (ﷺ) ، وقد جاء هذا النشاط نتيجة تحول طراً على طبيعة نزوات البدو فى الجاهلية .

(٤) الجهاد فى سبيل الله :

وبعد أن هاجر النبى إلى المدينة عام ٦٢٢ وشرع الجهاد وفصلته الآيات القرآنية نظمت الغزوات والسرايا . من هنا بات من الضرورى توجيه طاقات قبائل البدو التى كانت فى الماضى تجرد فى الغارات متفلساً لها وجهة أهداف جديدة للغزو ، ومما استلزم توسعاً يعقبه توسع ، ومن ثم فإنه طالما كان النصر حليف المسلمين ، أدت ممارسة الجهاد إلى نمو مستمر للتخالف الإسلامى إلى توسع إقليمى دائم .

(٥) السيف وانتشار الإسلام :

يقول مونتجومرى وات : ولا يعنى القول بالجهاد أن الدين الإسلامى قد انتشر بالسيف .

هناك من المستشرقين من التمس بعض الروايات غير المحررة التى رأى فيها ما يؤيد دعواه بأن الإسلام انتشر بالسيف : وهو أن أفرادا من القبائل الوثنية فى شبه جزيرة العرب الذين باتوا هدفا للجهاد خيروا بين الإسلام والسيف .. ولم يستثن من ذلك غير اليهود والنصارى والصابئين ممن اعتبرهم الإسلام من الموحددين . عوملوا معاملة مختلفة .

يرى « وات » أن الغرض من الجهاد ليس تحويل أهلها عن دياناتهم إلى الإسلام وإنما إخضاعهم للحكم الإسلامى باعتبارهم من أهل الذمة .

وبذا أصبح الذميون جماعات يدين أفراد كل جماعة بدين واحد لهم استقلال ذاتى داخل المجتمع الإسلامى ويسمون رئيسهم الدينى البطريك أو الحاخام . وفرضت على هؤلاء الجزية يدفعونها عن كل فرد منهم إلى الوالى المسلم لقطرهم ، كما فرض عليهم دفع مبالغ أخرى مختلفة وفق ما تنص عليه شروط المعهود والاتفاقات المبرمة مع جماعاتهم .

وكانت الدولة الإسلامية تعتبر أن حمايتهم حاية فعالة من أقدم واجباتها . فالجهاد غير السيف قد أدى عسكريا إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، غير أنه لم يؤد بصورة مباشرة إلى تحويل شعوب الأقطار المفتوحة عن دينها .

(٦) الهمجية العربية :

ينظر بعض المستشرقين إلى الفتح العربى لأسبانيا باعتباره غزوا همجيا . يرى « وات » أنه من الواجب أن نقمع بشدة أى ميل إلى تشبيه العرب بأولئك الهمج ، لأن هؤلاء العرب يمثلون إمبراطورية باتت خلال القرن أو

القرنين التاليين صاحبة أعظم حضارة وثقافة في تلك المنطقة الشاسعة من المحيط الأطلسي إلى أفغانستان .

(٧) الثقافة العربية وحضارات الأمم المفتوحة :

كان العرب شعباً بدائياً نسبياً ليس في حوزته غير القليل من الممتلكات المادية ولا تزيد ثروته الأدبية عن إنجازات في ميدالي الشعر والخطابة . ولم يكن المستوى الثقافي قبل نزول العرب قد نما بدرجة كبيرة حتى نزول الرحي وأقيم نظام الدولة الإسلامية ، وخرقت سماء العرب مشكلات ثقافية وفكرية لم يعهدوا مثلها من قبل فتيأت العقول لمزيد ثقافي من المراكز الثقافية الكائنة بمصر والعراق والشام فبدأ بذلك اختار ثقافي دام لعدة قرون .

وعرفت تلك الشعوب حضارة المدن من آلاف السنين ، حضارة تمتد جذورها إلى زمن السومريين والأكاديين وفراعنة مصر .

يقول وات : فإذا بكل ما ارتقى أنه ذو قيمة وينبغي بالتالي الحفاظ عليه من بين تجارب تلك الآلاف من السنين ، قد أضحي الآن يعبر عنه بلسان عربي ، لقد فرض العرب لغتهم وبعض مناحي تفكيرهم على معظم شعوب دولتهم ، وذلك بالرغم من أن الكثير من أفراد هذه الشعوب كانوا على مستوى حضاري وثقافي أعلى من مستوى الفاتحين .

ذلك على خلاف ما حصل مع الرومان حين ضم الرومان أراضي اليونانيين إلى إمبراطوريتهم كانت النتيجة ... كما عبر عنها أحد شعراء اللاتينية ... أن أوقعت اليونان الأسيرة فاتحها في أسرها ، فقد ظلت اللغة اليونانية بوجه عام في ظل الرومان لغة الثقافة والعلم ،

أما الفتوحات العربية فلم تؤد إلى وقوع العرب في الأسر ، على ذلك النحو .

لقد ساهم في إحداث تلك النتيجة ذلك الكبرياء العظيم وتلك الثقة الكبيرة بالنفس اللذان يتمتع العربي بهما ..

يقول وات : فالعرب البدو الأقحاح كانوا يؤمنون بأنهم أسقى من كافة البشر ، وقد نسب جانب كبير من هذا الاعتداد بالنفس إلى الإسلام الذي يرى فيه المسلمون أرفع وأنقى صور عبادة الله .

وحين اعتنق الإسلام أناس تلقوا تعليمهم في ظل تقاليد ثقافية سابقة ، بات عليهم أن يمزجوا في أذهانهم ما تلقوه في الماضي من العلم بدراساتهم القرآنية ، فإذا بمساهماتهم تصب في التيار العام للفكر الإسلامي وإذا بثقافة إسلامية قائمة بذاتها تتشكل نتيجة لهذه المساهمات .

وما كان هذا التمثيل للمعارف الأجنبية ليم لولا تبلور لب هذه الثقافة الجديدة في نفس الوقت ، وعلى نحو طبيعي ، هو ناجم عن الاهتمامات الرئيسية لدى المسلمين العرب .

وطرحت مسألة تطبيق الأحكام القرآنية على المشكلات المعاصرة وتحديد إمكان الاستفادة من سنة النبي لحل هذه المشكلات ، وكانت ثمرة هذه المناقشات أن ظهر علمان جديدان : علم أصول الفقه ، والفقه . وعلم أصول الدين ومشكلاته الكلامية .

ثم تضافرت جهود مشتركة نحو جمع سنة الرسول لتكون معيارا ملزما وارتبط بجمع السنة علوم أساسية لتحرير السند ومتن ورواية : مثل علم الرجال أو دراسة سير المحدثين من نقلة تلك الروايات وجمع السيرة النبوية ، وصحب دراسة الحديث دراسة القرآن . فدرست مسألة ترجمة القرآن إلى لغات غير لغته ترجمة مرضية ، وبالتالي كان على من أسهم من غير العرب أن يحفظ القرآن أو يقرأه باللغة العربية . وهو ما أدى إلى : دراسة النحو العربي وصناعة تأليف المعاجم ولكي يتحققوا من المعالي الأصلية للكلمات قاموا بجمع الشعر العربي الجاهلي .

(٨) ترجمة الكتب اليونانية :

لقد عنى بعلوم اليونان ، وقد كانت هذه العلوم - وقت الفتح العربى للعراق - تدرس فى المدارس المسيحية فيه ، وكان الكثير من الكتب اليونانية الأساسية قد ترجم إلى السريانية ، وهى لغة التعليم فى تلك المدارس . وقد بدأت ترجمة هذه الكتب إلى العربية قبل عام ٨٠٠ ، غير أن الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) كان أول من عنى بتنظيم عملية الترجمة ، وقد كان الاهتمام بدراسة هذه العلوم اليونانية لفترة من الوقت يكاد يقتصر على المدارس الطبية المسيحية .

٩ - مرحلة الرد والنقاش :

غير أنه بدأ منذ القرن العاشر نهوض المسلمين بتأليف كتب من ابتداعهم ، وقد يكون الأحرى أن نصفهم بالمسلمين اسماً حيث إنهم كان ينظر إليهم عادة باعتبارهم من الزنادقة ، ولم تخرج مؤلفاتهم بالتيار الرئيسى للفكر الإسلامى إلا على نحو تدريجى . ولم تكن هذه الثقافة مقصورة على منطقة معينة من الدول الإسلامية وإنما كانت متشرة انتشاراً واسعاً أينما كان الإسلام قوياً مترعراً .

١٠ - الوجود الإسلامى فى أوروبا وردود فعله :

كان غزو أسبانيا وصقلية يعنى ، لفترة من الوقت ، وجوداً إسلامياً على أطراف العالم المسيحى اللاتينى غير أنه فى حد ذاته لم يكن خطراً ملحاً يسند لرد فعل قوى .

يقول وات : ويمكن لنا أن نعتبر الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر رد فعل نشط لمواجهة الإسلام ، غير أن مركز هذه الحركة كان فى شمال فرنسا .

١١ - أسبانيا والمشرق :

ورغم أن أسبانيا في عهد الأمويين لم تكن تعترف بالخليفة العباسي في بغداد فقد ظلت صلاتها الثقافية قائمة بالمشرق الإسلامي .

وكان من السهل السفر إلى مراكز العلم كالمدينة ودمشق وبغداد ، وكانت الكتب تصل إلى أسبانيا بعد سنوات قليلة من نشرها في المشرق .

١٢ - أرنست رينان في القرن التاسع عشر :

لقد ذاعت بين الناس في القرن التاسع عشر فكرة أرنست رينان وغيره التي تربط التزام الناس الصارم بمبدأ التوحيد ، بشعور الإنسان وهو وحده وسط الصحراء الشاسعة بأنه كائن لا قيمة له .

يرى وات : أن هذه الفكرة لا أساس لها من الواقع ، فلم يكن المسلمون الأوائل من البدو قاطني الصحراء ، وإنما كانوا من سكان مكة ، وهي مركز تجاري هام ، ومن أهل المدينة وهي زراعية ، صحيح ، حتى إن الصحراء نفسها كانت طريقاً تجارياً ومعبر عملياتهم التجارية .. يقول وات : ومع ذلك فما كان البدو إلا نادراً مسلمين أتقياء لا في حياة النبي ولا في الأزمنة التالية لوفاته .

١٣ - التبادل التجاري في العالم الإسلامي :

يقول وات : وقد يكون صحيحاً ما قيل عن أن العالم الإسلامي بأسره كان منطقة تجارة حرة موحدة ، وأن حجم التبادل التجاري يختلف من بقعة إلى أخرى . والواضح مع ذلك أن التجارة انتعشت في معظم الأقطار الإسلامية وأنها أدت إلى قدر ملحوظ من التماثل في الحضارة المادية .

وحين قام الحكم الإسلامى فى أسبانيا وصقلية أقام القطران على الفور علاقات تجارية مع الأقطار الإسلامية الأخرى . وتبني تدريجياً مظاهر الحضارة الإسلامية وكانت النتيجة فى أسبانيا وصقلية أن أضحت الوجود الإسلامى هناك وجوداً حضارياً ، لا مجرد وجود عسكرى وسياسى^(١) .

١٤ - أسبانيا الإسلامية وأوروبا فى العصر الوسيط :

حاولت فى الفصول السابقة أن أبين كيف أدى الوجود الإسلامى فى أسبانيا وصقلية ، والصلات التجارية العديدة فيما وفى أنحاء أخرى ، إلى انتشار المنتجات والطرائق التقنية الإسلامية . فأما ما انتشر بهذه السبل فلم يشعر الأوروبيون بأنه غريب عليهم . ويهدد هويتهم . بل إنه حتى الحضارة المشتركة فى أسبانيا الإسلامية اعتبرها المسيحيون المستعربون ناجحة عنهم بقدر ما هى ناجحة عن المسلمين . كذلك فقد أوضحت كيف تمخض ازدياد الرخاء والحيوية فى أوروبا الغربية خلال القرن الحادى عشر عن ظهور الحركة الصليبية ، وكيف وجهت هذه الحركة بصفة أساسية ضد المسلمين . ولاشك أن هذه الحيوية ذاتها هى صاحبة الفضل فى إقدام المثقفين الأوروبيين فى القرن الثانى عشر على دراسة علوم العرب وفلسفتهم . وإذا فرغنا الآن من دراسة هذه المظاهر المختلفة للعلاقة بين الإسلام وأوروبا الغربية ، أصبح بوسعنا أن نذكر شيئاً عن المفزى الكلى لهذه العلاقة بالنسبة لأوروبا .

وقبل أن نطرق هذا الموضوع الهام ، ينبغى أن نذكر مظهراً آخر . فقد ذكرت آنفاً أنه حين يستعرض المؤرخ المسلم تاريخ أوروبا فى العصر الوسيط ، يجذب انتباهه قبل أى شئ آخر أمران : العمق الروحى أو الدينى للحركة

(١) فضل الإسلام على الحضارة الأوربية - ترجمة حسين أحمد أمين .

الصليبية ، وكيف يتسنى للصورة الشائعة عن الإسلام أن تهيمن على الفكر الأوربي من القرن الثاني عشر حتى يومنا هذا تقريباً . وقد آن الأوان أن نذكر شيئاً عن هذه الصورة الشائعة .

١٥ - الفكرة الشائعة عن الإسلام وتطورها :

يبدو أن الحركة الصليبية هي التي أدت إلى زيادة اهتمام الباحثين الأوربيين بالديانة الإسلامية . صحيح أنه كان ثمة بعض الإحاطة بالإسلام من قبل ، سواء بفضل المصادر البيزنطية ، أو بفضل صلات المسيحيين بالمسلمين في أسبانيا . غير أن تلك المعارف السائدة وقتذاك كانت مشوبة إلى حد رهيب بالأوهام والأخطاء . فقد نظر إلى العرب باعتبارهم وثنيين يعبدون محمداً ، ونظر إلى محمد باعتباره ساحراً بل الشيطان بعينه . كما شاع القول بأن الدين الإسلامي يبيح الاتصال الجنسي غير الشرعى ويطلق العنان لإشباع الغريزة الجنسية .

وليس من المستغرب أن نجد من بين أوائل من أبدى تفهماً حقيقياً للإسلام ، أفراداً سبق أن أشرنا إليهم في زمن الترجمين . فقد عصى « بدرو دو ألفونسو » اليهودى المتصمر في بداية القرن الثاني عشر ، إحدى محاوراته لموضوع الطمن في الإسلام . وهي محاوره تتميز بدقة المعلومات فيها عن هذا الدين ، وإن لم تكن قد ساهمت كثيراً في تكوين الصورة له . وأهم من هذه المحاوره الترجمات التى قام بها طالبان لعلم الفلك ، هما « روبرت أوف كيتون وهيرمان الدلماسى » بناء على تكليف من بطرس المكرم فى حوالى ١١٤٢ . وعلى أساس هذه الترجمات ، وخاصة ترجمة روبرت اللاتينية للقرآن ، وضع بطرس المكرم نفسه موجزاً لتعاليم الإسلام ، وكان هذان الكتابان ، بالإضافة إلى الترجمات التى أمر بها بطرس المكرم ، تعرف باسم « المجموعة الطليطلية »

أرد مجموعة كلوى ، ، وهى أولى المؤلفات العلمية الجادة عن الإسلام باللغة اللاتينية ، بصرف النظر عن المحاورة التى أشرنا إليها حالاً . وقد كان موجز تعاليم الإسلام بالذات خالياً من الأخطاء الفظيعة الشائعة فى أوروبا وقتذاك ، وبالتالي فقد كان يشكل تقدماً ملحوظاً ، وسعى فى نفس الوقت إلى تشكيل صورة جديدة عن الإسلام . وقد أضيفت خلال القرنين التاليين تفاصيل كثيرة ملء هذه الصورة ، غير أن العملية كانت قد اكتملت تقريباً حين ألف « ريكولندو دامونى كروتشى » (المتوفى ١٣٢١) كتابه « الرد على أقوال المسلمين والقرآن » .

والنقاط الأربع الرئيسية التى تختلف بصددتها صورة الإسلام فى العصور الوسطى عنها فى الدراسات الموضوعية الحديثة ، هى :

(أ) أن الدين الإسلامى أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة .

(ب) أنه دين العنف والسيف .

(جـ) أنه دين يطلق لشهوات المرء العنان .

(د) أن محمداً هو المسيح الدجال .

وسنذكر الآن فى إيجاز كلمة عن كل من هذه النقاط .

(أ) أن الدين الإسلامى أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة :

كان مفهوم الأوروبيين فى العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس ، بحيث لم يكن فى وسعهم أن يدركوا إمكان توافر صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم . وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية قيل : إن الأولى زائفة بالضرورة . ويمكن أن تضرب مثلاً للنبرة العامة فى الفكر الأوروبى بصدد هذه النقطة فقرة

واردة في كتاب القديس « توما الأكويني » ، الكتاب الأول ، الفصل السادس ، مع العلم بأن توما الأكويني كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالاً ونبراً . فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية وتدعمها ، نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق . وقد ذكر بالإضافة إلى « المتع الجسدية » التي يبيحها الإسلام والتي تجذب الناس إليه ، سذاجة الأدلة والحجج التي جاء بها محمد ، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التاريخ ، وتعاليمه الزائفة ، والفتقاره إلى المعجزات التي تؤيد زعمه أنه نبي . ثم وصف أتباعه الأول بأنهم « رجال لا علم لهم بالهيات ... يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى حياة الحيوانات » ، (وربما كان هذا الوصف منه بسبب قبولهم لأي زعم دون مناقشة أو تمحيص) . ثم يضيف : قوله إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمداً من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام . وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره ، فإن النظرة المدققة توضح أنه « حرف شواهد العهدين القديم والجديد » .

وفي حين قنع « توما الأكويني » والكثيرون غيره من الكتاب بالقول بأن محمداً خلط الحق بالباطل ، تمادى آخرون فادعوا أنه « حيثما قال قولاً سليماً دس فيه السم الكفيل بإفساده » . وبالتالي فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعمل الذي أضيف السم تحته . أو على حد قول أحدهم : « لاحظ في الكتاب بأسره دعاءه الرائع المتمثل في أنه كلما أراد أن يقول شيئاً شريراً أو يعيد إلى الأذهان شيئاً شريراً ذكره من قبل ، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله » .

وإنما كان قصدهم من هذا الحديث في معرض رسمهم لصورة الإسلام ،

بيان تناقض هذه الصورة مع صورة المسيحية . فقد ارتأوا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذي لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية ، وفي طياته شكل مطلق صالح لكل زمان ومكان . وقالوا إن التعاليم المسيحية تستهوى عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين ، وإنما تجذب في الشواهد التاريخية سنداً صادقاً يؤازرها .

(ب) أن الإسلام دين العنف والسيف :

كما قد ذكرنا عرضاً أنه حتى العلماء من أمثال الأكويين كانوا يحسبون أن محمداً إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية . كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب الدعوة إلى « السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرههم وقتلهم ، واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور » (بدرو دو ألفونسو) . بل لقد بلغ الأمر بأحد كبار المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية ، إلى حد قوله : « إن المسلمين شديداً الخماس لدينهم لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أى مخلوق يهاجم هذا الدين في أى إقليم يسيطرون عليه » . والواقع أن الصورة الأوربية للإسلام هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . وقد بينا في الفصل الأول أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التي يعترف الإسلام بها لم يغيروا بين الإسلام والسيف ، وأن الدين خير ما بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم ، ولم نسمع الكثير عن حدوث هذا خارج شبه جزيرة العرب . أما النشاط الحربي للمسلمين ، وهو الذي يملأ غيره كتب التاريخ ، فإنما أدى إلى توسع سياسى ، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة الدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعى .

وفي تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف ما يراد به الإيحاء بأنه مخالف تماماً لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع . ومن

الغريب أن يصدق الرجال المشتركون في الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام ، وأن دين خصومهم دين عنف . وقد أدرك بعض الكتاب أن مفهوم دين السلام مثال لا علاقة كبيرة بينه وبين الواقع ، وذهبوا إلى أن عدم مراعاة المسيحيين السيئين لهذا المثل الأعلى لا يشكل اعتراضاً مقبولاً على المسيحية . ويبدو أنهم فسروا هذا التناقض بذكرهم أن الغرض من الحروب الصليبية لم يكن إجباراً على اعتناق المسيحية بالقوة ، وإنما كان - على حد تعبير توما الأكويني فيما بعد - منع الكفار من الوقوف حجر عثرة في سبيل العقيدة المسيحية . وربما كانوا يعنون أيضاً استرداد أرض يرون أنها من حق المسيحيين .

(ج) أن الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان :

نظر الأوروبيون في العصور الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات ، وخاصة الشهوة الجنسية . وكثيراً ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التي يمكن للرجل الزواج بهن . اللهم ، إلا قدرته على الإنفاق . بل إن هناك من الكتاب من كان يعلم أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع نساء ، وكتب مع ذلك يقول أن الحد الأقصى هو سبع أو عشر . وكثيراً ما ترجعوا آيات قرآنية بحيث توحى بمعنى جنسى منفرد ، والآيات برهنة من ذلك . بل لقد وجد واحد على الأقل من الكتاب آية قرآنية أنها تبيح الزنى . ووجد آخرون متعة في مضاعفة التفاصيل الخاصة بالحياة الجنسية لدى المسلمين . وقيل : إن أشكالاً حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسي بين الأزواج يمارسها المسلمون بكثرة ويحثون عليها . بل ذهبوا إلى أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسي . ورأى البعض ذروة الإباحة الجنسية الإسلامية في التصوير القرآني للجنة ، وتحدثوا طويلاً عن الخور العين اللواتي سيكن من

نصيب المؤمنين فيها ، ووجدوا في ذلك فضيحة أيما فضيحة . كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية ، وإن كانوا كثيراً ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة .

ولبعض تفاصيل هذه الصور التي رسمها أوربيو العصور الوسطى أساس من الواقع . فللمسلم أن يتزوج أربع نساء ، بالإضافة إلى التسرى بمن ملكت يمينه ، وله أن يطلق امرأته دون أن يذكر السبب . ومع ذلك فالزواج والطلاق تحكمهما إجراءات شرعية دقيقة ، ولا يتأن بطريقة عفوية . أما عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية ، فخمة مجتمعات إسلامية شديدة التعفف ، وقد تقتل الفتاة التي تلد مولوداً غير شرعى على يد أحد أفراد العائلة التي فضحت بها سلوكها . ويعاقب على الزنى بين متزوجين بالرجم (كما في الكتاب المقدس) . وإن كان توقيع العقوبة مشروطاً بشروط شرعية كثيرة تجعل من النادر حدوثه . فإن كان في الجنة كما وصفها القرآن حور عين أو أزواج مطهرة ، فكثيراً ما يذكر أن المتعة الكبرى هي رؤية وجه الله . وبالتالي فإن الصورة التي رسمت في العصور الوسطى للحياة الجنسية الإسلامية هي صورة زائفة في كثير من الوجوه .

كذلك رأى الأوربيون المسلم مطلقاً العنان لشهوات أخرى . فالحياة الرغدة في أسبانيا وصقلية الإسلاميتين بدت في أعين العاجزين عن الاستمتاع بمثل هذه الكماليات حياة قائمة على إشباع الشهوات . وزعموا أن القرآن يعلم الناس أن ينقضوا عهودهم متى كان في نقضها مصلحة لهم ، وأنه يذكر أن بوسع المرء أن يدخل الجنة دون أن يأتى بأعمال صالحة ، مادام قد نطق بالشهادة . وظنوا أيضاً أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر ليس إلا مبرراً لكسلهم وخوضهم الحياة على غير هدى . وهنا أيضاً تحوى صورة الإسلام مزيجاً من الحق والباطل . فالإسلام يهاجم الرهينة ، ولا يرى في العزوبة فضلاً

كبيراً . غير أنه في نفس الوقت يقر معظم الأشكال الأخرى للزهد . أما صوم رمضان ففيه مشقة عظيمة ، ومع ذلك فلا تزال قطاعات كبيرة من سكان الدول التي يشكل المسلمون الغالبة فيها تلتزم به إلى يومنا هذا .

ويوحى هذا المظهر من مظاهر الصورة الأوربية للإسلام بأن العالم المسيحي يكبح جماح شهواته . فالمؤكد أن المثل المسيحي الأعلى هو الزواج من واحدة مدى الحياة ، بل وكان من الشائع الاعتقاد بأنه حتى في إطار الزوجية لا يمكن اعتبار الاتصال الجنسي خيراً محضاً ، إذ أن الهدف من القوى التاسلية هو إنجاب الأطفال لا اللذة . وسنذكر حالاً بعض الإيماءات الأخرى لهذه النقاط المثارة حول الشهوة الجنسية .

(د) أن محمداً هو المسيح الدجال :

لم يكتف بعض الدارسين الأوربيين للإسلام بالزعم أن القرآن يوحى الكثير من الكذب ، وأن محمداً ليس نبى ، فقد تناول بطرس المكرم فكرة لبعض علماء اللاهوت اليونانيين وهي أن الإسلام هرطقة مسيحية ، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا ، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة . وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد هو أنه حيث إن محمداً ليس نبى ، وحيث إنه أسس مع ذلك ديناً جديداً ، فلا بد أنه ساهم إيجابياً في مساندة قوى الشر ، ولا بد أنه كان إما أداة للشيطان أو عميلاً له . وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض .

هذه إذن الجوانب الرئيسية للصورة الشائنة عن الإسلام التي تكونت لدى أوربا فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر . وهي تحمل إيماء بجوانب لصورة مناقضة للعالم المسيحي الكاثوليكي . وحيث إن هذه هي النظرة التي

نظر بها الأوروبيون إلى أنفسهم ، فإنه يمكن أن نسمى هذه الصورة الأخيرة الموحى بها صورة أوروبا الغربية . وقد كانوا يعتقدون أن المسيحية حق مطلق ، وأنها تخاطب العقل ، وأنها دين سلام ، وتسمى إلى هداية الناس إليها بالإقناع . وهى دين الزهد والتقشف ، وتقمع كافة شهوات الجسد ، ورغم أنه لم يفصح قط عن هذه الصورة إفصاحاً كاملاً ، فإنها كانت قائمة فيما توحى به الصورة التى رسموها للإسلام .

من هنا تشكلت صورة الإسلام فى الغرب ، لقرون طويلة من خلال تجارب تاريخية : تميزت تلك التجارب التاريخية ، التى جرت بين أوروبا والإسلام ، بأنها اصطبلت اصطباحاً شديداً بعداوة غربية للإسلام ، ساقته أوروبا إلى التحزب غير العلمى فى الكتابة ضد الإسلام ، إلى حد أن جعلهم يلوون المنهج العلمى ، بأن قاموا باستنتاجات متفق عليها قبل ، أملاها عليهم تعصبهم ، ثم يبدأون البحث عن الشهود .

فهل لدى الاستشراق قضايا أخرى يقدمها إن أراد مساهمة فيما يطل على الشرق من أحداث ومشاكل منها الاقتصادية والسياسية والثقافية ، والتفاعل الحضارى بين الشرق والغرب ، والبحث عن أسباب التخلف الحقيقية دون إسقاطها على الإسلام إن أراد الاستشراق أن يعرب عن صدق رسالته الحضارية ، لا بد أن يقدم صيغة جديدة تمثل مهمات الاستشراق الجديدة تخدم (رسالة الحوار) بين الثقافتين الشرقية والغربية ، أم إنه سيظل قابلاً تحت قبو تلك القضايا يلوكلها ويشكلها ويخرجها وفق توصيات السياسة الأوروبية - الأمريكية .. أم أنه سيظل تراثياً قابلاً ليخرج مخطوطات وفهارس ويبحث ما رفضه مفكرو الإسلام وفقهاؤه ؟ .. لاشك إنه إفلاس فى المنهج وزوال فى المصير ..

فلسفة الخطاب الاستشراقى :

إن الخطاب الاستشراقى لم يكن أميناً فى عرضه للتراث الإسلامى والتاريخى لا للمستشرقين من جانب ، ولا للعالم الإسلامى من جانب آخر لقد شوه الاستشراق من نفسه ومن تاريخه . كما شوه إنجازاته وشوه الشخصية الإسلامية أمام نفسها وأمام العالم الغربى فما استطاع الغرب أن يفهمها حين تعامل معها ، وما استطاعت أن تعرف نفسها للعالم الغربى حين حتمت عليها الظروف التاريخية أن تعرف نفسها للغرب ، فلقد سبقها الاستشراق (سحار) العلم والفكر ، وزيف معاملها ، وشوه تاريخها ، وأغرى عليها الاستعمار . وقدم الشرق لقمة سائفة لمستعمر قاهر جرح .. وكما شوه الاستشراق الشعوب الإسلامية فلقد شوه بالدرجة الأولى تاريخه ورسالته بوقوفه مع الظلم والاستعمار ضد عدالة الحقوق للشعوب وحريتهم ، فلم يكن ذات يوم سلاح دعم ودفاع للشعوب ضد الاستعمار ؛ فلذلك كانت رسالته وسوف تكون لو عاد التاريخ إلى سيرته الأولى ولستنا ندعى عليه ذلك ظلماً أو لسد الطريق المفتوح أمام رسالة الحوار التى نطلبها إنما قررنا ذلك من خلال تاريخه وتراثه .

من الصعب أن يقيم الاستشراق ، وقد كان تاريخه مرتبطاً بالاستعمار أو بالتبشير الصليبي ، أو العلماني المبطن ، وفى ظل ظروف دولية معقدة أن يقيم علاقات اعتراف ولاسيما إذا أخذنا بالاعتبار الواقع الانقسامى السياسى فى العلاقات الدولية بين العرب والغرب . يقول إدوارد سعيد : علاقات معرفة لم تتم فى ظروف مناسبة للتعارف السليم بين الشعوب ، بل انخفضت إلى رؤوس واستدلالات معرفية قامت بها فرقة من المستشرقين فى أوروبا وأمريكا .

وهذا المدهش فى معارفنا يجعلنا نتساءل : كيف يمكن لأطراف تجهل بعضها بعضاً أو تتجاهل بعضها بعضاً ، أن تعترف اعترافاً تكافوياً ، ديموقراطياً دولياً

من جهة ، كيف يمكن لها بدون اعتراف تام بوجودها الإنسان المتناسق والمتكافئ أن تعرف إلى بعضها البعض تعرفاً مختبرياً - كالذي أوصلنا إليه المختبر الاستشراق ثم المختبر السياسي - الاستعماري - بكل تبعاته الاقتصادية والعسكرية وأنظمة الغزو^(١).

لاشك أننا سنجد صعوبة كبرى في الخطاب الناقل لها ، في الكلمات التي ترمز إليها بدقة ، وفي المتخاطبين أنفسهم .. فالاستشراق معناه أو معانيه : نفى الخطاب . والمختبر الذي وضعنا الاستشراق فيه هو المختبر لنصوص المختبر الاستعماري المختبر الصليبي ، وأن وقوف الاستشراق داخل تلك الدائرة ليتخذ منها عناصر تعريف الغرب بالشرق ، لتعتبر صورة منفصلة جديدة برفض التعامل معها على صعيد مشاريعه للشرق والغرب ، ويكون الاستشراق قد أجرم في حق نفسه وفي حق علاقات الغرب بالشرق ، حين تخلف عن تعريف الشرق بالغرب معرفة علمية موضوعية بعيدة عن القوالب والصيغ التراثية .

وفمن مظاهر الغرابة والاندهاش ، من نظرة الغربيين المستشرقين إلى الإسلام والمسلمين ، إلى وجودهما بالذات ، أن هناك إجماعاً معرفياً شعبياً على الأقل إن لم نقل لخبوياً أكاديمياً ، في العالم العربي ، على أن الاستشراق في مجمله أسهم في إنتاج العداء للعرب ، وبالتالي أسهم في استباحة عنصرية للوجود العربي . كما ساعد حين استطاع ، على استلاب المعالم الحضارية العربية الإسلامية ، سواء بخضدها أم بازدهالها . فهل هذا الانتاج شيء طبيعي في التاريخ^(٢) .

(١) الاستشراق - مشكلة معرفة أم مشكلة تعارف بالآخر ، د. خليل أحمد خليل - مجلة الإنماء العربي عدد ٣٩ الاستشراق .

(٢) نفس المرجع السابق .

يصف د. صادق جلال العظم في كتابه^(١) : أنه الخطاب المعكوس .. وما يزال ينطلق معكوساً .

ويرى إدوارد سعيد : لم يوقف الصراع العرقي السياسي وفي المستوى المعرفي الثقافي عن استيراد متوجات المستشرقين ونقلها إلى العربية - رغم خلوها في الأصل عن وصف دقيق لما تصف وتخلل ، ومازال العرب مندهشين بأعمال الاستشراق ويذهبون إلى الغرب . ويعنى إدوارد سعيد أن علينا أن نضرب صفحاً عن أعمال الاستشراق . ونتجه إلى تعريف ذاتنا للغرب وليس من خلال أعمال الاستشراق حتى يكف عن إنتاج المعارف المشوهة ، وإنتاج العداء بين الشرق والغرب .

ولقد أدى الاهتمام بالمستشرقين إلى أن أصبح الاستشراق مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق ، وتوسعت آفاقه وتأسست مفاهيمه وصارت صالحة للتداول وهي كما صنفها إدوارد سعيد :

● استشراق ذو دلالة أكاديمية ، أي كونه بحثاً جامعياً في معرفة الآخرين .
● وكونه أسلوباً فكرياً قوامه تمايزان أساسيان ، وجودي ومعرفي بين غرب يدعى إنه يعرف نفسه تماماً - بنفسه - وبين مشرق قابل لمعرفة الغير وعاجز ذاتياً عن معرفة نفسه .

● وكونه متداخلاً مع بنى الدولة الحديثة في الغرب ومتشابكاً مع توجهات المجتمع المدني . فمن خلال كونه أكاديمياً وجامعياً ومن أسس البناء الحضاري للدولة تطوّر من أن بدأ فردياً إلى مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق ، وأضاف على خطابه لغة الاستعلاء المعرفي وساعده على صفة الاستعلاء النقص المميت في التقدم المعرفي لدى العرب والمسلمين منذ عدة قرون . وهو في كل

(١) الاستشراق والاستشراق معكوساً .

صورة ليس تعاوناً معرفياً ، وليس تبادلاً معرفياً - إنه صورة مزدوجة بين الوجه الثقافي والسياسي .. ويرغب الاستشراق أن يقدم نفسه كحقيقة ثقافية ، ويرغب عن تقديم نفسه كحقيقة سياسية جنود نفسه لخدمة الإمبريالية ، في بعض أدواره .

« وإذا كان الاستشراق قد عجز عن تشخيص معرفة مناسبة ذات نوعية محترمة فهذا يعني أن بعض المستشرقين الذين اختلطت لديهم العوامل المعرفية والسياسية والنفسانية لم يكونوا أكثر من مصابين بـ « العصاب التوهمي » - البارانونيا - فجاءت معرفتهم للشرقين مخالفة للمعرفة التاريخية العادية^(١) ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الاستشراق يغدو مشكلة ذهنية ، مشكلة فلسفية ونفسانية : فكيف يسمح عارف لنفسه بألا يكون عقلانياً - وهو قادر على ذلك - فيلجأ إلى توهمات عن الآخر وغاياته : إنكاره لا معرفته كما هو ، فيتج مفاهم شائعة وابتسارات وأحكاماً منحرفة بدلاً من إنتاجه وعياً طبعياً لمجتمعات تاريخية وواقعية ؟ هذه التوهمات رصدتها إدوارد سعيد في عينات ثقافية وسياسية انتقادية سليمة^(٢) .

يقول مارسيل بوازار :

إن كتابات المستشرقين ، عدا بعض الاستثناءات النادرة ، لم تساهم كثيراً في تحسين تفهم الإسلام أو إعادة دقة الصورة التي كانت لدى الرأي العام الغربي إلى نصائبها الصحيح . أولاً لأن أشغالهم كانت غالباً تقدم إلى الجمهور بلغة متخصصة جداً ، صعبة المنال بالنسبة لجمهور غير عارف بالموضوع . وخصوصاً ، من جهة أخرى ، لأن الاستشراق كان في الأصل ، أحد الفروع

(١) الاستشراق - إدوارد سعيد ص ٩٢ .

(٢) الإسلام اليوم ص ١٩ ، ٢٠ اليونسكو .

العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية ، في فرنسا وفي بريطانيا العظمى وفي البلاد الواطئة . فقد كان المطلوب إجمالاً فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهيل الإدارة الاستعمارية للشعوب الإسلامية ، ليس هذا نقداً بل بديهة تاريخية ، حقيقة لم تحاول الدول الاستعمارية آنذاك إخفاءها .

فضلاً عن أن التراث الديني الغربي ظل دائماً حاضراً حضوراً خفياً إذ أن هناك مدرستين رئيسيتين قد نمتا : الإنجليز - ساكسونية البروتستنتية والفرنسية الكاثوليكية ، يبدو أن هذا التأثير استمر حاضراً حتى يومنا هذا تحت توجيه المواقف التي اتخذها الكرسي الرسولي والمجلس المسكوني للكنائس الذي أشرنا إليه آنفاً .

بالطبع ، لم يكن المستشرقون ظالمين إزاء الإسلام دوماً ، لكنهم كانوا دائماً - يضعون أنفسهم في موضع القضاة . قضاة غالباً ما كانوا نزهاء ، معترفين بما كان يبدو لهم حسناً ومنزليين العقاب بما كان يبدو في نظرهم سيئاً . قضاة نزهاء لكنهم كانوا مع ذلك مراقبين ، زيادة على أن موقف القاضي الخارجي هذا كان أيضاً خاضعاً خضوعاً واسعاً للعرفية المحيطة التي كانت توهم بأنه لا قيمة إنسانية أو روحية ترجى من ثقافة محكومة مادياً ومستعمرة سياسياً .

بدأ البحث الاستشراقي ، منذ عهد قريب جداً ، يتطور بطريقة جد مختلفة وبدون شك مشجعة ، فمن جهة ، ظهر اقتراب أكثر موضوعية وأكثر تعاطفاً ، بالتوازي مع حوار لاهوتي أكثر تخصصاً بين رجال الدين ، ومن جهة أخرى خاصة ، لأن المسلمين يشاركون الآن ، أكثر فأكثر ، كأساتذة في الجامعات الغربية ، في عرض الثقافة الإسلامية عرضاً علمياً ، وفي تقديمها حسب مسعى ذهني يمس الجمهور المثقف في أوروبا وأمريكا . افتقد الاستشراق خلال أمد طويل ، ما يمكن أن نسميه « كفيلاً » إسلامياً . كان

معظم علماء أو مثقفي العالم الإسلامي ، منذ بضعة عقود ، إما نجباً متفربة غير ملمة بثقافتها الخاصة بجذورها العميقة التي اجتثوا منها ، وإما علماء دين أتقياء ، يجهلون حقائق الواقع السياسي المعاصر^(١).

بالتأكيد ، ليس بالإمكان استبعاد عبء الماضي بحجرة قلم ، رغم أن العداوة القديمة . مستمرة ، على نحو صريح أو خفي ، كتابات بعض الأخصائيين المعاصرين ، فإن فكر الخطأ والاستشراق ، ونبرته تطور كثيراً بوجه عام ، فإن كتاباً حديث العهد لا يهيم بارتداد الطرق القادرة على تحسين الاستشراق ، الذي اعتبر « كوههم إيديولوجي » بقدر ما يهيم بتوجيه نقد لا يرحم ، يشكل - رغم رغبته الواضحة في استبعاد الفروق الدقيقة - اتهاماً مؤثراً ، فقد تبنى شبهة قديمة أعيدت إلى الواجهة بفضل الجامعيين الأمريكيين في بداية السنوات السبعين ، فيما يخص حياد واستقلال العلوم الاجتماعية ، إزاء السلطات العامة والاستراتيجية السياسية ، فإن المؤلف أصدر حكماً متطرفاً ، وفي معظمه قياساً قوة عادلة ، مستنداً إلى أمثلة عديدة ملموسة : الاستشراق ، أداة أيديولوجية لجمع متقدم بإمكانها أن تسمح بمحاكمة وسبر مجتمع مادياً أقل تقدماً . متحلياً بهالة تعمق علمي زائف ، فإنه يحول التعريض إلى حقيقة ، والسجال إلى أرثوذكسية . وهكذا نجح في رسم صورة للشرق مشوهة كلياً ، مظهرة كل ما هو مضاد لرموز الغرب : العقلاني المعتدل والتقدمي . إن ثقة - بله غطرسة - المستشرقين بأنفسهم بلغت درجة من شأنها أن تحدث اغتراباً ثقافياً لدى بعض المثقفين ، بحيث إن العربي يتصور نفسه كما يصفه الإحصائيون الغربيون . هذا الهجوم الشرس مبالغ فيه جداً^(٢).

(١) نفس المرجع ص ٢٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ .

لا الاستعمار ، ولا وفرة الإعلام استطاعا تسوية المشاكل النفسية . بيد أن حكماً يراعى الفروق الدقيقة أكثر ، وعلى نحو ما ، أكثر تفاعلاً بالنسبة للمستقبل يستأهل الصدور . في الواقع ليس أكيداً أن المدرسة الاستشرافية المعاصرة قد ظلت عدا بعض الاستثناءات المحدودة والمعروفة جداً - تصل رح الإمبريالية الثقافية ككل بحث يطمح أن يكون علمياً ، لكنه يعالج مشاكل الإنسان ، بالطبع تأثرت المدرسة الاستشرافية بالأحداث الفورية والعابرة لما يجرى على الساحة اليومية ، فرضت هذه الأحداث بعض الاتجاهات على تقصى الحقائق . تشبعت هذه المدرسة بمفاهيم ضمنية منحدره من حقبة السيطرة الغربية التي تؤيد ، جزئياً ، رؤية عبر منشور مشوه ، وأخيراً فهي موسومة بالأفكار التقليدية للأساتذة السابقين الذين لبثوا ، في هذه المادة ، ميثولوجيا (منهج) تبحر محدد وامتنالية استاتيكية ، نقطة ضعف الاستشراف الرئيسية هي إذن في الوقت الراهن ليست آتية من الذاتية العدوانية بقدر ما هي آتية من انغلاقه في غل قديم جداً ، من بناء المتحجرة بفعل التقاليد الأكاديمية والتخصص المهني المفرط .

وفي نهاية المطاف ، يبدو أن للاستشراف ، بمراكمته المعارف المتبحرة التي لا تنتشر نشرأ واسعاً خارج حلقات العارفين والتي تواصل التفوق على دراسة الظواهر الاجتماعية الشاملة التي تولد من التأكيد المشروع لهوية أصلية ، تأثيراً على الرأي العام الغربي أقل من تأثير هذا الرأي عليه فهو يقوده أحياناً ويفرض عليه آراءه غالباً^(١) .

(١) نفس المرجع ص ٢١ .

الأبعاد : تسييس العقول لقابلية التشكيل الغربى :

بعد العرض السابق للخطاب الاستشراقى نجد أن الاستشراق نشأ فى ركاب الاستعمار حيث كانت البدايات الحقيقية له مع دخول نابليون إلى مصر فى حملته الفرنسية . وهذه فى واقع الأمر لم تكن حملة عسكرية فحسب إذ صحب نابليون معه إلى جانب جيشه العسكرى ، جيشاً من العلماء والمفكرين اتجهوا إلى دراسة الحياة المصرية من جميع جوانبها ، وألفوا كتاباً عرف باسم «وصف مصر» وكان الهدف الظاهرى لهذه الدراسات ملفاً سياسياً من نابليون إلى المسلمين لإرضائهم إلا أن الهدف الحقيقى لم يكن كذلك بل كانت هذه الدراسات وسيلة من وسائل الاستعمار تمهيد سيطرته على الفكر المصرى والإسلامى تمهيداً لإحكام قبضته عليه بعد الوقوف على أوضاعه ونواحي ضعفه . وهكذا اصطبغت الدراسات الاستشراقية منذ البداية بالنظرة المزدوجة ، فهى من الظاهر تهدف إلى دراسة الشخصية المصرية ، ومن الباطن تهدف إلى تسييس العقول لقابلية المستعمر الغربى .

ومن هنا يمكن أن نحدد أهم أساليبه الاستعمارية فيما يلى :

١ - الإلمام بكل صغيرة وكبيرة فى المجتمع الإسلامى وتصويره بصورة تسهل على الاستعمار الغربى الإستيلاء عليه ، أى أن الدافع الأساسى استعمارى .

٢ - لقد كان الاستعمار على يقين أنه لن يستطيع أن يستولى على العالم الإسلامى مادام الإسلام قائماً فيه ومادام يغذى وحدته الفكرية . ومن هنا وجه علماءؤه إلى دراسة تراث الشرق الإسلامى وخاصة الإسلام واللغة لكى يجدوا السلاح الذى يستطيعون به ضرب الإسلام ويمهدوا الطريق لدخول المستعمر .

٣ - لقد اتسمت الدراسات الغربية في الشرق بطابع العنصرية لأنها قامت على نظرية العرق التي أكدت تفوق الإنسان الغربي الآري على الإنسان السامي الذي - هو في زعمها - بطبيعته التكوينية يعانى من تخلف لا يمكن الخلاص منه مطلقاً . ومن ثم كان الاستشراق الغربى يهدف إلى ترسيخ أسلوب المغايرة بين الشرق والغرب وتوثيق مبادئ نظرية العرق . لذلك فقد حرص من خلال دراساته للشرق على إبراز التخلف الشرقى في مقابل التفوق والعقلانية الغربية . وفي ضوء تأكيد هذه المغايرة تكون مفهوما الشرق والغرب كمفهومين متغايرين ومتناقضين في التفكير ومستوى الحياة . وكان الغرب دائماً هو الأقوى والشرق هو الأضعف ثقافاً وعرقاً .

أساليب الاستشراق في ضرب الوحدة الفكرية في العالم الإسلامي والقضايا التي طرحها :

لقد قلنا إن الاستشراق كان مطية الاستعمار الدلول ، وكان هدف الاستعمار الأساسي هو الولوج إلى أفئدة الشعوب العربية لتثبيتها لقبول الوصاية الاستعمارية ، وكانت أساليبه في ذلك متعددة ، كلها تركز على أهمية ضرب الوحدة الفكرية ، ومهما اختلفت محاولات دراساته إلا أنها جميعاً كانت تنطلق من مسلمة مسبقة عن الشرق تغذيها في ذات الوقت أطماع المستعمرين وإقناعه بنظرية العرق . ومن هنا جاء ضرب الاستشراق للوحدة الفكرية من عدة نواح :

أولاً - إضعاف الروح المعنوية لدى المواطن العربي وتشكيكه في ذاته : فقد انداحت دائرة الاستشراق في دراساته عن الشرق وشعوبه وقدمها في صورة سوداء . فقد أكد الاستشراق على أن الشرق موسوم بالغبية وأنه سلبى ، لا يستطيع بحكم طبيعته المشاركة في السلم الحضارى ، وفي نفس الوقت فهو عديم النشاط عديم الاستقلال لا يستطيع الاعتماد على نفسه . وقد تفنن الاستشراق في عرض هذه القضية مستشهداً بالأوضاع التي عليها الشعوب الشرقية مقارنة بالشعوب الغربية وما آل إليه ماؤها من التفتت والتخلف في الوقت الذي ارتقى فيه الشعب الأوربي درج العلا في السلم الحضارى . والسمة الحتمية لذلك أنه لا بد للشرق أن يقبل وصاية أوربا لكي يسهل عليها إدارة أموره الفكرية وسياسة حكمه . وطبعاً هذه النظرة للشرق وأهله واضحة إنما هي صورة معيرة تماماً لما حرص الاستعمار الغربي على الترويج له وهو لوقية الغرب في مقابل الدونية الشرقية في ضوء « نظرية العرق » التي ابتدعتها وروجت لها بالرغم من مخالفتها لمنطق العقل والعلم . وقد كان لهذا

أثره على الشعوب الشرقية وخصوصاً أنها كانت قد وقعت في ذلك الوقت - وما زالت - في مراحل الركود والضعف . كانت حضارة أوروبا تمثل بالنسبة لها - المثل الأعلى للتقدم والعقلانية وبالتالي فقد كان لهذا التصور أثره على العقول الشرقية إلى حد أن كثيرين منهم خايلهم الإغراء ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عوناً للاستشراق والاستعمار في الشرق الإسلامي ضد الإسلام وتراثه .

ثانياً : كان المستشرقون يركزون في دراساتهم على ماضي الشعوب الإسلامية على اعتبار أنها تمثل أزهى فترات الشرق ، فحرصوا على إبراز خصائص هذا الماضي وتشويهه على اعتبار أنه إذا كان الماضي مشوهاً فالنتيجة الحتمية لذلك طبعاً أن تخلف الشرق في الوقت الحاضر أمر لا مفر منه ما دام مرتبطاً بتراث ذلك الماضي المتخلف . وهذا بدوره مرسخ لأوضاع الاستعمار ولأهداف نظرية العرق ولا حياة لشعب نحى عن تراثه وماضيه .

ثالثاً : البحث في الحضارات الشرقية القديمة . فلقد نشط الاستشراق في هذا المجال ، ولم يكن غرضه في ذلك إحياء التراث الشرق إنما كان يرمى من وراء ذلك إلى تجديد بعض النزعات العنصرية القديمة ، وإحياء الفروق بين الشعوب الشرقية لكي يذكى روح الخلاف بينهم ، ويكون بذلك قد ضرب الوحدة الفكرية القائمة في الصميم .

وقد تحقق له بالفعل ما أراد إذ دبت الخلافات المذهبية والطائفية بين شعوب الشرق وخاصة الشرق الإسلامي ، وأضرمت بينهم نار الفتنة ونار الحروب الأهلية . وأكدت الخصومات بين أبناء الدين الواحد واللغة الواحدة ، مما مهد لدخول الاستعمار بحجة المساعدة أحياناً والنصرة أحياناً أخرى .

رابعاً : لقد كان الإسلام واللغة العربية هما الهدف كما قلنا سابقاً ، لأنهما أساس الوحدة الفكرية في الشرق الإسلامي ، ومن هنا نشطت الدراسات الشرقية التي قام بها الاستشراق ، وقد كان لسمومهم التي نفتوها حول الإسلام سبب الأثر على مكانة الإسلام وعلى عدم صلاحية الإسلام كمنهج سلوكي يحدد حياة المسلمين ، ومن ذلك التشويه المنظم .

(أ) عمدوا إلى شرح القرآن الكريم وخاصة المتشابه منه بصورة تبعث الشك في نفوس المسلم وتزعزع دينه في نفسه وسنذكر أمثلة كثيرة على ذلك .

(ب) عمدوا إلى بعض مبادئ الإسلام والتي قد تغيب الحكمة منها عن البعض واستخدموها كسلاح للحط من قدر الإسلام وإثبات أنه غير صالح كمنهج للحياة . ومن ذلك مثلاً ما يتعلق بقضية المرأة حيث إنهم أشاعوا ما زعموا أن الإسلام ظلم المرأة وأن مبادئه تفضل الرجل عليها في كل شيء . وهناك الكثير من الأمثلة التي سنذكر منها الكثير تدفع موقف المستشرقين في تفسيرهم لمبادئ الإسلام . وكيف استخدموا في سبيل تزييفهم مناهج ملتوية دسوا فيها السم واتهموا به بما عثروا عليه من أحاديث موضوعة . ومن نماذج لأولئك الذين ارتكبوا المفاصد باسم الإسلام ، والإسلام منهم براء ... إلخ . ذلك مما كان له أثر على توتر العلاقات بين الشرق والغرب وعلى سحب الثقة من المستشرقين وعلى نظرة الشعوب الأوروبية له كذلك .

(ج) عمدوا إلى سيرة الرسول (ﷺ) فتناولوها بالتشويه والتحريف وأشاعوا أن الرسول لم يكن إلا مجتهداً للمسيحية ، واختلقوا في سبيل إثبات ذلك الروايات المنحولة ، فقد ساعدتهم دراساتهم لتراث العالم الإسلامي على ذلك حيث إنهم لم يتركوا شاردة ولا واردة صح نسبتها أو لا ، إلا وأحصرها واستفادوا منها أعظم استفادة في خدمة أطماعهم .

خامساً : عمدوا إلى اللغة العربية وهي الأساس الثانی للوحدة وأكدوا على أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة التقدم العلمی الحديث وأن الشرق إذا أراد أن يتخذ سبيله إلى الحرية والتقدم فلا بد له من تبني لغة الغرب لأنها لغة العلم والحضارة . وكان لذلك صدى في نفوس بعض مفكری الأمة الإسلامية حيث دعت فئة من هؤلاء إلى التخلي عن اللغة العربية وإحلال الحروف اللاتينية محلها . وقد أسهم الاستشراق كذلك في إحياء اللهجات المحلية لكي يقصی اللغة العربية عن حياة المسلم باعتبارها عاملاً من عوامل الوحدة الفكرية التي يسعى إلى تفتيتها .

ومن هنا فقد كانت جهود الاستشراق موجهة إلى تنحية الإسلام عن حياة الشرق بدعوى أنه ما عاد يصلح أسلوب حياة إلا لمرحلة مضت وانتهت ، وتنحية اللغة العربية عن أسلوب التعامل بين شعوب العالم الإسلامي على اعتبار أنها عامل ثان للوحدة الفكرية .

هذه صورة موجزة عن أساليب الاستشراق التي استطاع عن طريقها ضرب الوحدة الفكرية في العالم الإسلامي في الصميم .

ولقد أسهم الاستشراق عن طريق أسلوب التضليل الذي اتبعه في طرح قضايا فكرية أساءت إلى العالم الإسلامي وإلى الإسلام إيما إساءة وخدمت في نفس الوقت أطماع الاستعمار ومذاهبه ، ومن هذه القضايا .

١ - أقام دراساته على نظرية العرق التي تعنى « دونية الشرق » و « تفوق الغرب عليه » إذا ما تمسك بترائيه الإسلامي ولا سبيل إلى تقدمه إلا بمسايرته للغرب ، وقبول الوصاية الغربية عليه .

٢ - أسهم في خلق العداء تجاه العرب ، وفي بث روح العنصرية بينهم وفي النظرة المذهبية إلى التراث الإسلامي وكل ما يمت إليه بصلة .

٣ - شوه المعالم الحضارية للتاريخ الإسلامى إما عن طريق تنحيها أو ازديادها .

٤ - يؤخذ عليه أنه خلق الصراعات المذهبية والعنصرية والطائفية .
وأغفل الأسلوب التحليل العلمى فى دراسته للأوضاع الشرقية والإسلامية .
٥ - نظر إلى الإسلام على أنه مركب ثقالى يمكن دراسته بعيداً عن الظروف السياسية والاقتصادية والواقع الاجتماعى للعالم الإسلامى . وكان له أثره ودوره الخطير فى النظرة السيئة للإسلام وأهله ، والتي رسخت فى أذهان الشعوب الأوربية .

كان له الدور الأكبر فى صرف الأذهان عن الإسهام العلمى الذى قدمه المسلمون الأوائل فى مجال العلم والمعرفة . حيث أكد للرأى العام الدولى أن العرب لم يسهموا مطلقاً فى تطور العلوم ، وأن ما يقال عن وجود علم عربى وفلسفة عربية إنما هو نقل وترجمة قام بها موالى العرب للفلسفة اليونانية والتراث الاغريقى وعلوم مدرسة الإسكندرية .

الأمر الذى أدى إلى تحويل أذهان وأسماع العالم الغربى بأكمله عن البحث فى الإسهام الحضارى الذى قدمه المسلمون للتراث الإنسانى .

انصرف الاستشراق إلى الاهتمام بالتواشى التراثية والتاريخية الإسلامية فقط ، فى حين أن مجال الدراسات الاجتماعية لم يكن لها أى نصيب فى الشرق ولم يكن هناك أى اهتمام بالموضوعات المعاصرة فيما يخص قضايا التحديث والتنمية والتكنولوجيا ، بل على العكس من ذلك رسخ فى الأذهان أن الشرق بطبيعته لا يقبل الإصلاح . كل ذلك من أجل خدمة مصالح الاستعمار فى العالم الإسلامى . ولكى لا يساهم فى تطور العالم العربى وتقدمه فيقف على قدم المساواة أمام الغرب بدلاً من الرضوخ له . . .

وبذلك يكون الاستشراق قد نجح في ضرب الوحدة الفكرية من خلال ضرب الدين الإسلامى واللغة ، ونجح كذلك في نشر أفكاره في العالم الإسلامى من خلال جماعة المستشرقين .

وهناك نقطة في النهاية أحب أن أوضحها ، وهى أن الاستشراق لم يكن كله شراً ، وإن كان هذا الغالب عليه . إلا أنه وجد هناك طائفة من المستشرقين اتجهت لدراسة الشرق من أجل البحث العلمى النزيه ، إلا أن تأثير هؤلاء لم يكن يذكر لسببين :

(أ) أنهم لم يلقوا تأييداً من أضرابهم بل على العكس من ذلك فقد حورت كتبهم واهتموا بالعصية وبالحيال الواسع . وكان يعوزهم الدعم المالى الذى كان موفوراً لغيرهم ممن خدموا الاستعمار ومذاهبه .

(ب) أن هؤلاء وقعوا في أخطاء نتيجة لعدم فهمهم للغة العربية وعدم معايشتهم لجو المجتمع الإسلامى مما دفعهم إلى تصور وضع الشرق في ضوء نظرائهم وخبرتهم الغربية .

كما أن الصورة المشوهة التى بثها الاستعمار المعادى كان لها من القوة والتأييد بحيث إنه كان لها الصدى الوحيد لدى الشعوب الأوربية ولدى ضعاف العقول من أبناء العالم الإسلامى .

(جـ) يقول دكتور عبد الجليل شلبسى^(١) : وفى الحق أن المبشرين والمستشرقين رغم ما يسيئون به إلى الإسلام خليقون أن يكونوا نموذجاً للداعية المسلم فى حسن الاستعداد وسعة القراءة والاطلاع .

(١) الإرساليات التبشيرية ص ١٣ - د. عبد الجليل شلبسى - منشأة المعارف .

أزمته منهج وتاريخ :

ولا شك أن الموقف العدائي من الاستشراق ناجم عن علاقات الاستعمار الغربي بالشرق . ولما كان الاستشراق إحدى وسائله في تسييس الشرق لخدمة الاستعمار وأهدافه ، وهو مظهر من مظاهر ذلك العداء .. وإذا كان الغرب قد غزا الشرق والإسلام عسكرياً ، فإن الاستشراق ، رافق هذا الغزو وقدم له وبارك ومهد له الطريق على الجبهة الثقافية والفكرية .

« بل نرى فيه فصلاً في مؤامرة كبرى على الإسلام والمسلمين ... فالغرب والاستشراق عندما كان مسيحياً أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير . وهو عندما صار علمانياً أراد « تخريب » عقائد المسلمين لتضعف مقاومتهم فيسهل استغلالهم^(١) .

ولقد خلفت تلك العلاقات السيئة بين الغرب والشرق إحساساً سيئاً في نفوس الشرقيين بأن المستشرق لا يمكن أن يكون حسن النية أو علمياً عندما يتعلق الأمر بالإسلام ، فالتناء على أمر معين في الإسلام أو الشرق من جانب بعض المستشرقين . قد لا يكون خالصاً في بعض الأحيان ، وإنما هو حاجة في نفس يعقوب .

ولم يترك الاستعمار الشرق الإسلامي إلا وقد ترك جراحاً عميقة ما زالت الأمة العربية تقاسى من شرورها وويلاتها آلاماً طافحة .. الصراع اليهودي - الفلسطيني العربي - الإسلامي .. دعم الكيانات الإقليمية والطائفية . وآل الأمر إلى مواقف جامدة بدأ معها الاتزان ، سذاجة أو خيانة .. فالتخفون المسلمون اليوم بين جامد وحاقد ، وتعب ويأس .. وانعكس تاريخ نشأة

(١) ثقافة الاستشراق ومصادره - الفكر العربي عدد ٣١ - د. رضوان السيد .

الاستشراق على كل عمل يقوم به المستشرقون بأنه ليس خالصاً من الناحية العلمية وليس مستقلاً ببحوثه وتوجهاته ، فهو لابد أن يكون تابعاً لجهة رسمية معادية للإسلام والمسلمين بالغرب ، أو هو رأس الحربة في منظمة سرية متآمرة على دين المسلمين وحضارتهم .

ومادام مصطلح « استشراق » ومستشرقون ، ماثلاً على الساحة الثقافية فستظل صورته الاستعمارية - التبشيرية - والسياسية السرية - ماثلة في ذهن المثقفين العرب والمسلمين ، إنه هو « الوجه الأكاديمي أو المدون للسياسية الاستعمارية في الشرق » وعلى حد وصف إدوارد سعيد : سيظل بعداً من أبعاد العلاقة المعقدة والصراعية بين الشرق والغرب .

الاخصائيون يرفضون الاستشراق :

لما كانت مصادر الاستشراق تقوم في الأعم الأغلب على تقارير الإدارات الاستخبارية والمندوبين للاستعمار وموظفيه ، والبعثات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية وإحصاءات وتقارير مجالس إدارة الشركات ، وأخبار الرحلات .. والتقارير السرية لجهاز التجسس ، وذلك كله مصبوغ صبغاً شديداً بكل منوعات العرقية والعنصرية ، ويتصف أكثرها اعتدالاً بالغرابة وبالانتماءات المفرضة التي تخدم الغربي المتمركز حول ذاته ، والمحورية الغربية للاستعمار ، هذه جميعها لاتصلح بأي حال من الأحوال من وجهة النظر الأكاديمية دعماً لأي عمل يتوخى البحث والعلم^(١) .

من هنا أخذ المنهجيون العلميون دور الاختصاصات العلمية يعون جيداً ذلك التفاوت ، بين العلم الاستشراقي والمادة موضوع الدراسة ، كذلك

(١) نفس المرجع - الاستشراق ومصادره ص ١٨ .

أخذوا يعون أيضاً الفروق المنهجية بين عمل الاستشراق ، وبين مفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية ومناهجها ، وأدوات عملها .. وبين تلك التي يستخدمها الاستشراق^(١) .

هكذا استبعد الاستشراق التقليدى من قبل تاريخ الشرق ونهضته القومية وأصبح مقطوعاً عن الواقع قياساً على تقدم البحث العلمى ، فصار من اللازم أن يعاد النظر فيه جملة وتفصيلاً^(٢) .

والاستشراق في ذاته يعانى أزمة : التقرير البريطانى :

في عام ١٨٤٦ أسس « معهد الشرق الأوسط » في واشنطن ، وما لبث أن اتبع عام ١٩٤٩ « مجلس الشؤون الشرق أوسطية » في نيويورك . وفي عام ١٩٤٧ عمدت لجنة سكاربورج بناء على مشورة من « أ. أربرى » إلى الشروع بتجديد الاستشراق البريطانى : إذ كانت نهاية الحرب تملئ الاضطلاع بالمسؤوليات التى تظل ملقاة على عاتقنا فى المستعمرات ، وبملاقاتنا الجديدة .. ويوجه التقرير نقداً صريحاً لـ « المحورية الأوربية » ويشير إلى أن تأخر الدراسات الشرقية فى بريطانيا العظمى « قياساً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والاتحاد السوفيتى (سابقاً) والولايات المتحدة » لا يتفق كما يجب مع وضعنا كقوة عظمى ولا بتلاءم مع مسئوليتنا الامبراطورية ، فينبغى تنظيم

(١) الاستشراق في أزمة ص ٧٧ الفكر العرفى .

(٢) نفس المرجع ص ٧٧ .

دراسات حديثة لمساعدة العلميين بشكل خاص من أطباء ومهندسين
واقصاديين . ممن يرغبون في تكريس جهدهم للشرق ويودون الارتباط به
ارتباطاً صحيحاً^(١) .

التقرير الأمريكى : لجنة هايتز :

بعد أربع سنوات من كتابة التقرير البريطانى .. جاء رد فعل لجنة هايتز رداً
عنيفاً وسياسياً ، وبما أن مركز النقل في العالم قد انتقل من أوروبا إلى أمريكا فإن
الاستشراف اكتسب تجديداً تبعاً لمغيرات الساحة السياسية واهتماماً فلم يعد
مقصوراً على علماء اللغة بل كما يقول التقرير اتسع ليشمل تخصصات واسعة
مثل : المؤرخين والحقوقيين والاقتصاديين والاختصاصيين في العلوم
الاجتماعية .. وذلك كما يقول التقرير - مع أهداف الاستشراف الأمريكى
الجديدة وهى :

- أن يتوافر للأمة احتياطي أعظم مما هو متوافر لها الآن ، وأشد توازناً من
جهة الباحثين ومن وجهة المواد المنشورة حول هذه البلدان .
- أن يصار إلى المساهمة في تشكيل هيئة تتولى المواد المنشورة حول هذه
البلدان .
- أن يصار إلى تشجيع الاهتمام باللغات الشرقية تشجيعاً غير مباشر .
- وأخيراً أن يصار إلى رفع نسبة الدراسات الحديثة ونسبة دراسة اللغات
الحديثة قياساً على الدراسات الكلاسيكية^(٢) .

(١) نفس المرجع -

(٢) نفس المرجع ص ٨ .

وتحلل اللجنة الجهد المبذول من قبل الولايات المتحدة ، التي كانت تأق في
المرتبة الأخيرة أيام لجنة « سكاربورج » وتعرب عن تأثرها الشديد
بـ « اتساع رقعة الجهد المبذول ، وبمط التنظيم الذي يعتمد عليه هذا
الجهد ، والتشديد على الدراسات الحديثة » ثم تلفت انتباه الحكومة البريطانية
إلى النقاط التالية :

● قوة الدعم الذي تخصصه حكومة الولايات المتحدة للدراسات الشرقية
والصقلية نظراً لأهميتها القومية .

● الجهود المبذولة من قبل دراسة المجالات لاسقاط الحواجز الفاصلة بين
مختلف فروع المعرفة ، والعمل على تقدم دراسة هذه المجالات تقدماً متوازياً .

● تنشيط الاهتمام بالدراسات الحديثة .. دور المنح التي تدفع للطلاب
المجازين بغية توجيههم نحو حقول عمل جديدة .

● تأمين الحوار وتأمين مصالح الدولة ، تحسين نوعية الباحثين .
وذلك خطأ وقع فيه المستشرق « جب » حينما ألف كتاب : تاريخ
الإسلام .. اعتمد على تسعة عشر مؤلفاً أوربياً ليس بها سوى شرق واحد .

التقرير الأمريكى لجنة هايتز :

وحينما انعقد مجمع السوسولوجيا الإسلامية في بروكسل (١١ - ١٤)
سبتمبر ١٩٦٠ لستمع إلى عشرين متكلماً ، لم يكن بينهم عالم شرق واحد ..
الأمر الذى أثار احتجاج « جاك بيوك »^(١) .

(١) الاستشراق في أزمة ص ٨٠ .

وقد حاول د. حسين مؤنس : أن يلفت الأنظار عبثاً إلى أن قسماً كبيراً مما عرض في المجمع قد تجاوزه الزمن ، وصار متأخراً عن ركب التاريخ الذي يصنع نفسه .

مؤتمر تضامن الأفرو - آسيوى :

وقد أعطى مؤتمر تضامن الأفرو - آسيوى في باندونج (إبريل ١٩٥٥) دفعاً حاسماً لعملية التوحيد الثقافي ، ولا سيما في التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب في القارتين .. وقد عاج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيت الذي انعقد في طشقند ١٩٥٧ أربعين موضوعاً عاماً يخص بالذكر :

- × تهافت الاستعمار الغربى .
- × مهام الاستشراق السوفيتى بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى .
- × الأهمية العالمية لمؤتمر باندونج .

وكانت أهمية مؤتمر باندونج ترجع إلى أنها اتفقت مع تقرير « هايتز » والأطروحات الأيديولوجية لدى القادة الصينيين . في توجيه النقد « للمحورية الأوربية » أى برفضها والتخلي عنها نهائياً من حيث المبدأ ، إن الحضارة الغربية ما زالت تعانى من عجرفة ثقافية لا مبرر لها سوى أنها تشبه صلتها بشعوب العالم الأخرى .

ويندد « نيد هام » العالم البيولوجى ، الذى أخرج موسوعته بعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدءوب التى يطمح فيها أن تمد حضارة عصرنا وثقافته بالبعد الصينى بالغرب بقوله :

« إن الخطأ الأساسى الذى ترتكبه « المحورية الأوربية » يكمن في المسلمة الضمنية التى تعتبر أن كل ما هو أوربى هو في الوقت نفسه شامل ، لالشيء إلا

لأن العلم والتقنية الحديثة اللذين نشأ بالفعل في أوروبا عصر النهضة هما شاملان .

ثم يبرهن جوزيف نيد هام على أن هذه المسلمة باطلة علمياً وتاريخياً في آن واحد ، ويشدد على دور الدين بوصفه وسيلة اختراق وتكامل لأوروبا .

تيار الاستشراق الاشتراكي :

كلمة افتتاح مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين للنائب الأول لرئيس الوزراء ه أنستاز ميكويان ، :

كان أهم ما في الكلمة أنها بينت دور الحركات التحررية التي شملت آسيا وأفريقيا وغرت طابع الاستشراق ومضمونه تغييراً جذرياً .. وأصبحت السمة له في أن شعوب الشرق بدأت تخلق ، اليوم ، علمها الخاص ، وبدأت تصوغ تاريخها وثقافتها واقتصادها ، إن شعوب الشرق قد تحولت من كونها

موضوعاً أو مادة للثقافة إلى كونها في مصاف الشعوب الخلاقة ، وأشار إلى الدور الأساسي للاستشراق الجديد ، فقال : إن من واجب المستشرقين أن يعكسوا في أعمالهم بصورة موضوعية ، أهم العمليات الجارية في بلدان آسيا وأفريقيا ، وأن يعمدوا بصورة خلاقة ، إلى صياغة المشكلات الأساسية لصراع شعوب الشرق ، من أجل تحررها القومي والاجتماعي ، والتعويض عن تأخرها الاقتصادي . ويصح أن نقول : إن الاستشراق لن يسعه أن يعول على كسب اعتبار واسع ولا على النجاح إلا عندما يصبح في خدمة مصالح الشعوب الشرقية^(١) .

(١) الاستشراق في أزمة ص ٨٥ .

أما كلمة مدير معهد الاستشراق في موسكو في مؤتمر المستشرقين الخامس والعشرين . فلقد عبر الأكاديمي ب. ب. غاندروف عن الرؤية الجديدة للاستشراق الاشتراكي فقال : إننا معشر المستشرقين السوفيت ، نعتبر من واجبنا العلمي فضلاً عما يملية علينا وعينا ، أن نساعد شعوب الشرق ، دولنا انقطاع في صراعها من أجل مستقبل أفضل ، وإننا مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية - ومنهجنا العلمي على إننا نسير أفضل .

ويشير د. ج. شينو ، إلى متغيرات العصر بقوله : لقد شاخ مفهوم الاستشراق وتخطاه الزمن ، ولكن الدراسات الآسيوية والأفريقية عازالت تطرح نفسها مصحوبة بمشكلاتها الخاصة : التخلف ، تاريخ الاستعمار ، الحركات التحررية ، الحركات القومية .. التقاليد .. العوائد .. الخ .

(شينو) و(جب) :

يكادان أن يتفقا على التحدث عن الامتياز القومي الأوربي ، فليس ذلك معناه أن الغرب استأثر به .. فثمة أجناب يأتون من أمكنة بعيدة حاملين معهم إرثاً ثقافياً أو اجتماعياً مختلفاً ، فيتمكنون غالباً من التوغل بسرعة شديدة ، ومن وجهة أصيلة في حياة شعوب أخرى .

الموقف الحالي للاستشراق :

هل يجدد الاستشراق من وظيفته بعد أن نالت هذه الدول الشرقية استقلالها ، وانحسر الاستعمار الأوربي ؟ ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل في القوى العظمى تحت وطأة هذا التغير الدولي وانهارت حدة الصراع الدولي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي .. أصبح الاستشراق يبحث له عن دور يمكن أن

يلعبه في دول العالم الثالث المستقلة ، والتي تقف من الغرب عموماً موقف
التحدى ، ولم يعد أمام المستشرقين إلا أن يسلكوا أحد طريقتين التين :

• إما أن يستمروا في بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل على حد
قول إدوارد سعيد ، موضوعات : التاريخ واللاهوت ، والجغرافيا ، والعلوم
والفنون في الشرق في صورها الحقيقية والمتخيلة .. هل يظلمون كذلك كما لو لم
يكن شيء قد حدث .

• أو أن يعدلوا أساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الأوضاع الجديدة .

وكلا الموقفين صعب ، وبالأخص أن الكثيرين من المستشرقين لا يكادون
يعترفون بأن الشرق قد تغير أو يمكن أن يتغير . ويبقى بعد ذلك كله طريق
ثالث :

• وهو أن يسقط علماء الغرب ، الشرق من اعتبارهم ويطوى سجل
الاستشراق للأبد ، ولعل ذلك هو الحل الوحيد إن لم يجدد من نفسه ورسالته
ومنهجه وينفض روح الاستعمار منه^(١) .

الاستشراق لا يجدد من قضاياها :

لقد سوغ الاستشراق للاستعمار ممارسة الحكم المطلق في الشرق وأوجدوا
لأنفسهم التبريرات .. مع أنه أصبح ثابتاً أنه ليس من خير الشعوب « الحكم
المطلق » وأنه هو أذى الإنسانية .. ومع ذلك رضى المستشرقون أن يعينوا
الظالمين ويصدروهم إلى بلدان الشرق . فهل يستطيع الاستشراق أن يعيد
النظر في قضايا الشرق الأوسط من جديد ، ليرفع ما أسقطه من أوزاره على

(١) لم الاهتمام بالاستشراق ؟ - شكرى النجار .

الشرق . وكما مهد الطريق للغرب الاستعماري ذى الأغراض السياسية لاستغلال الشرق أن يعيد النظر من جديد لمهد الطريق أمام الغرب ليعترف بالإسلام ، وموضوعية الحوار لبناء علاقات إنسانية جديدة .. أم أن ذلك كله يخضع للرؤية السياسية التي يدعى الاستشراق أنه بعد عنها وأنها من مهام رجال السياسة ؟

لا شك أنه يكفي الاستشراق أن يعلن توبته بأنه يقبع تحت مظلة تحقيق النص التاريخي القديم .. أو أنه يكف عن الغمز واللمز للإسلام وقضاياه ورسوله ولغته ، أو أنه يسترجع تاريخ الاستشراق ليشير قضاياها القديمة ولكن بأسلوب اللوم والتقد .

إنما التوبة تكون برد المظالم إلى أهلها .. أى على الاستشراق أن يجدد من نفسه ومن منهجه ورسالته ، ويساهم في حل العلاقات المتوترة بين الشرق والغرب .

الاستشراق يتبنى مبدأ ما للسياسة للسياسة :

يقول رضوان السيد^(١) : في أوائل شهر مايو من هذا العام احتفلت فيينا بالذكرى الثلاثمائة لتراجع الترك أمام أبوابها . وقد استمرت الاحتفالات شهراً كاملاً تخللتها محاضرات مستفيضة عن صمود سكان المدينة العريقة ، وعن التنظيم العسكري العثماني وأوضاع الدولة العثمانية وعلاقاتها بالغرب إبان الزحف الإسلامية باتجاه أوروبا (١٤٠٠ - ١٦٨٣) . وقد حاول منظمو

(١) ثقافة الاستشراق ومصائر وعلاقات الشرق بالغرب : رضوان السيد - إسهام مهدي . مرودي بارت - مجلة معهد الإنماء العربي - الاستشراق التاريخ والنهج والصورة عدد ٣١ .

المهرجانات أن يخففوا من الطابع التحريضي للمسيرات . والاحتفالات عن طريق فتح مجالات لأحاديث شبه موضوعية عن القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام ، وعن العلاقات الإنسانية بين المسلمين والمسيحيين رغم الصراع العسكرى - في العصور الوسطى ، وبرزت في النقاش على هامش الذكرى : مسائل ، مثل الاعتراف بالإسلام كدين ، وبالمسلمين كمجموعة بشرية بأوروبا المعاصرة .. ورغم ذلك كله ما استطاع المعتدلون أن يكتبوا صرخات المحرضين الذين رأوا في القوة العاملة الإسلامية بالغرب زحفاً من نوع جديد يهدد مصائر الحضارة الغربية المعاصرة ، كما هددوها من قبل ، وكما يتهدها الروس اليوم .

قبل ذلك بقليل كان مؤتمر المستشرقين الألمان قد انعقد بمدينة توبنجر وسط إصرار المنظمين على الطابع الكلاسيكي للاستشراق ، وعندما ارتفعت أصوات بعض شبابهم مطالبة ببحث العلاقات الإسلامية والمسيحية ، وقضايا المشرق الإسلامي اليوم - ذهب كبارهم إلى أن ذلك كله سياسة بحتة ، لا شأن للاستشراق بها ، وتباينت حجج هؤلاء في هذا الصدد . فمن قائل : إن دراسة القضايا المعاصرة تقتضى ضرورة اتخاذ موقف ؟ والموقف بعد ذاته مضر .. ومن قائل إن صراعات المشرق المعاصر مختلفة وغير واضحة بحيث يتعذر طرحها في نقاش علمي هادئ . ورأى فريق ثالث : أن بحثاً من هذا النوع من مهام أساتذة العلوم السياسية والاستراتيجيين ، ولن يستطيع المستشرقون أن يقولوا في شأنها جديداً .

يعلق رضوان السيد فيقول : هذان المثالان ، قصدت من ورائهما التذليل على أمرين :
الأمر الأول : الحضور المتصل للمسألة الإسلامية بالغرب من جهة ،

وصيرورة كل بحث استشراق عن قضية معاصرة على الخصوص : إلى تأمل علاقات الشرق بالغرب والمسيحية الغربية بالإسلام .
الأمر الثاني : وما عدا ذلك يدخل في نافذة القول ، ومما حكت الغفلة أو التجاهل المتعمد ، وفي الأغراض السياسية .

نتائج .. وقصور :

× ينبغي أن تتجه مركزة الاستشراق إلى الدراسة المتعمقة للمشكلات الراهنة .

× التعاون المشترك بين أكاديميات البحث العلمي والجامعات ، بين الشرق والغرب من أجل إيجاد حلول مشتركة لمشكلات التخلف والتنمية ، ومعالجة ما خلفه الاستشراق الاستعماري ، والنظر من جديد إلى الشرق على أنه مساهم في الحضارة المعاصرة ومبدع في الحضارات القديمة .

× خروج الاستشراق من تقاليده القديمة وصيغه الخورية وقوابله التي يستعملها مقدماً مع دراساته للشرق الإسلامي والإسلام وتراثه^(١) .

(١) الاستشراق رسالة استعمار . د.١/ محمد ابراهيم الفيومي دار الفكر العربي .

فهرس الكتاب

صفحة	الموضوع
٥	ملفحة
.....	[الفصل الأول]
٩	انقرات فى تاريخ الاستشرافى
٩	ظاهرة الاستشرافى
١٠	تارىخ مصطلح مستشرقى
١٢	علم الاستشرافى
١٧	المفهوم الأول - المعنى الأكاديمى
١٨	المفهوم الثانى - المعنى العربى
١٩	المفهوم الثالث - مطلب استشرافى
٢١	لمن هو المستشرق ؟
٢٣	مجالات الاستشرافى
٢٤	تصنيف الاستشرافى
٢٦	مؤسسة مشتركة للتعامل مع الشرق
٢٧	الاستشرافى الأكاديمى وضبط صوته
٣١	الاستشرافى الصليبي والصراع مع الإسلام
٤٠	للناس المريضة لا تقرر إلا مرضاً
٤٤	مفكر و عصر النهضة وتحرير معرفة الشرق من رؤية الاستشرافى الاستشرافى
٤٥	سقوط الاقطاع وتطبيق مبدأ سيادة الفرد والمجتمع
٤٥	تحرير الفكر من سيطرة الكنيسة
٤٧	استشرافى الاستعمار ومسيرة الصراع مع الإسلام
٤٩	ظهور الجمعيات الاستشرافية
٥٠	مؤتمرات المستشرقين
٥٠	تقدم الغرب العلمى لا يقرر معارفه عن الشرق
.....	[الفصل الثانى]
٦٥	لماذا يعادى الغرب الإسلام ؟
٧٣	هل لدى الاستشرافى قضايا أخرى غير تشويه الإسلام ؟
٧٣	تحديد نقاط لتشويه الإسلام
٨٩	فلسفة الخطاب الاستشرافى
٩٦	الأبعاد : تبسيط القول لقابلية التشكيل الغربى
٩٨	أساليب الاستشرافى فى ضرب الوحدة الفكرية فى العالم الإسلامى والقضايا التى طرحها
١٠٤	أزمته .. ملهج وتاريخ
١٠٥	الاخصاليون يرفضون الاستشرافى
١٠٦	والاستشرافى فى ذاته يعانى أزمة
١٠٦	التقرير البريطانى
١٠٧	التقرير الأمريكى : لجنة هانتر
١٠٩	مؤتمر التضامن
١١٠	تيار الاستشرافى الاشتراكى
١١١	المواقف الحالية للاستشرافى
١١٢	الاستشرافى لا يجد من قضاياها
١١٣	الاستشرافى يبنى مبدأ ما للسياسة للسياسة
١١٥	نتائج .. وقصور

ترقبوا

العبد القادح

الإلام

و

الفرب

للأستاذ الدكتور

محمود حمدي زقزوق

Publications Alexandria



0392713

To: www.al-mostafa.com